

د.أحمد خيري العمري



غريب في المجرّة



سلسلة ضوء في المجرة

غريب في المجرة

أحمد خيري العمري





غريب في المجرة/ أحمد خيري العمري .- دمشـــق:
دار الفكر ٢٠٠٧ .- ١٦٨ص؛ ٢٠ سم.
٠- (سلسلة ضوء في المجرة)

١- ٢١٨,٠٣ ع م ر غ ٢- العنوان ٣- العمري
٤- السلسلة

مكتبة الأسد



ثقافة الاختلاف

2012=1433

دار الفكر - دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

سلسلة ضوء في المجرة

غريب في المجرة

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢٠٤١٠,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:1-59239-699-2

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٦٨ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الثالثة: ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م

ط١ / ٢٠٠٧م

مقدمة الناشر

حين وصلت كتيبات هذه السلسلة إلى دار الفكر لطباعتها وتقديمها للقراء توقفت عندها قليلاً، ذلك لأنّ فيها نَفَساً من نوع خاص، وأفكاراً معروضة بطريقة خاصّة.. وكل جديد يتوقف المرء عنده، ويفكر فيه، ويسأل عنه، يمايزه مع غيره.. يتردد، يحار، يقدم رجلاً، ويؤخر أخرى. يخشى أن يتوغل فيه.. يخاف.

والكلمة تخيف.. وبعض الكلمات ترعب..

والكلمة مسؤولية.. والمسؤولية لها ما وراءها..

وحين تصدر الكلمة، وتكون أحياناً كالقنبلة التي تحدث الانفجار، حين ذلك لا يمكن أن ترجع أو تُسترجع.

على أن أجزاء هذه السلسلة ليست قنابل، ولا تحدث الأذى، ولكنها أجراس قوية وضعيفة توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وتهدي الحيارى.

وربما يكون فيها صوت عالٍ وصدى عنيف.. هو صوت التحذير، وأصداء الإنذار والتذكير.

هل تقوم كلمات هذه السلسلة بكل هذه المسؤولية؟!



إهداء

إلى هـ. ب ، طبعاً..

بصفته الشخصية أولاً..

وبصفته ممثلاً عن "الجيل" ، ثانياً..



غريب في المجرة !

..و أخيراً :..جواز السفر!

كما لو بمعجزة..، كما لو أنه إثبات أن القدر يكتب نهايات الفصول في أكثر الأوقات مناسبة..

و ها هو ذا جواز السفر ، بيمينك ، قبل أيام فقط من الوقت المفترض لبداية الحرب التي يعدوننا أنها لن تتأخر كثيراً..

كأنها معجزة!

جواز السفر في يمينك..و في شمالك تذكرة السفر!

* * *

..قرار ما ، عريق و منيع ،كان يمنعك من السفر..بحكم وظيفتك السابقة..

عمر القرار يتجاوز عمرك الوظيفي كله..لا شيء

شخصي ضدك أو معك..كنت تعلم يقيناً عندما دخلت تلك الوظيفة أنك لن تخرج منها بسهولة وأنك إذا خرجت فلا سفر هناك !

.. و كنت تريد أن تلتف يميناً ويساراً على القرار.. باستثناء نادر و لكنه موجود.. و كان التزوير كذلك خياراً استخدمه معظم من "نفذ"..

لكن في أعماقك - في دعائك-في دموعك-في سجودك ، طيلة السنة الماضية، كنت تريد قراراً آخر يسمح لك بالسفر بشكل قانوني..

و كان ذلك وقتها حلماً بعيد المنال ، أو حتى مزحة و نكتة سخيفة....

.. و فجأة استجيب الدعاء -دون سابق إنذار-

وكما لو بمعجزة،خلال أيام: جواز السفر...

..نقطة نهاية السطر.

* * *

مشاعري متداخلة حقاً.

سعيد من أجلك.حزين من أجلي.

أشعر كما سيشعر بالتأكيد واحد من توأمين في الميتم. جاء من يتبنى واحداً منهما فقط -وحانت لحظة فراقهما الأليمة..

..أشعر أيضاً بالصفاء بعد التعب،بالضبط كما تشعر أم بعد مخاض الولادة..

وأشعر أن مهمتي قد انتهت..

وأشعر بالحاجة إلى أن أؤرخ لكل ما كان، أكتبه وأنزفه وأقذفه صاروخاً موجهاً يتجاوز المدى الذي تسمح به قوانين الامم المتحدة علينا والتي يتعذرون بها من أجل شن حرب ما علينا..

و.. يعبر القلوب كما القارات، يعبر الأفكار .. ويعبر المشاعر..

عندها ، و عندها فقط، سوف أضع نقطة نهاية السطر.

وتكون مهمتي قد انتهت!

* * *

يا صديق..

تمضي الأيام، ونتصور أحياناً أننا نحسن صنعاً، التفاصيل تحيط بنا وتغلف رؤانا وبصيرتنا، تجعلنا لا نرى أبعد منها - تحجز عنا كل ما سواها، تحاصرنا من كل الجهات مثل صندوق مغلق مفرغ من الهواء..

وفي ذلك السباق الرهيب الممتد من المهد إلى اللحد، يظل هذا الصندوق المغلق يحيط برؤوسنا

وبوعينا وبأبصارنا وبيصائرنا - لا شيء سواه يشكل أفقنا.. وفوق هذا نتصور - أو يتصور البعض منا على الأقل - أننا نحسن صنعاً..

.. لا شيء سوى تلك القوالب التقليدية المكرسة التي يغرسها المجتمع فينا تملي علينا الشروط والأوامر - ونهب ملبين كأننا حمر مستنفرة، نلهث ونتعب ونحن نتراكض على ذلك الدرب الممتد إلى قبورنا ونحن نصفق ونصفر ونطلق شارات النصر وهتافات التنديد والتأييد..

.. لم يخبرنا أحد أن هناك درب آخر - وأن هناك أفقاً آخر، وأن هناك عالماً آخر - بل كوناً آخر، خلف هذا الصندوق المغلق الذي أسرونا فيه، وحكموا علينا فيه بالسجن الأبدي فيه، مساجين أولاد مساجين، حبلت بنا أمهاتنا في السجن، وعانين المخاض فيه، وولدنا فيه ونُشئنا فيه.. وصار السجن وحده عالمنا، لا يمكن لنا فهم أن هناك مساحة أخرى - خلف قضبان الزنزانة..

.. داخل هذا النمط الضيق من الحياة أسرنا. ولأننا لا نرى شيئاً آخر فقد تصورناه النمط الوحيد - ربما أدخلنا بعض التعديلات والتحويرات هنا وهناك، لكن النمط ظل هو هو، واحداً ووحيداً..

أقول ذلك كله لأنني جربته - لقد جربناه جميعاً بالتاكيد، لأننا كلنا سجناء هذا الصندوق الأصم المغلق.. لكن شيئاً ما حصل وخرجت من تلك الزنزانة الصماء..

.. وعرفت الفرق..

* * *

.. كسر صغير، قد يحدث، لسبب أو لآخر، في جدران الزنزانة الصماء..

فتحة صغيرة، في ذلك الصندوق المغلق..

ثقب صغير - في ذلك الحجاب الحاجز الذي يحجز على صدورنا ويحجر على رؤانا وأحلامنا ويمنعنا الهواء النقي..

ثقب صغير، سيجعلنا نرى العالم الآخر الذي يقع في تلك المجرة الأخرى على بعد سنتمترات من اقفاصنا الصدرية.

ثقب صغير، في لحظة خارقة جارحة خارجة عن مقاييس الزمن التقليدية يجعلنا - لو فقهنا - نقفز خارج السور العظيم الذي يحيط بنا من كل الجهات.

.. أتحدث عن ذلك لأنه حدث لي، جربته ومررت به..

على الأقل مررت بنوع منه...

* * *

كنت وعدتك مرة أن أحكي عما صار هناك..

كانت ليلة مميزة..

واحدة من ليالي العشر الأواخر في رمضان..

رمضان قبل الفائت..

وكان هناك ذلك الكسر في داخلي.. لكني لم أكن أعي وجوده..

لكني كنت أعرف انكساري..

كنت أعرف أني منكسر لله - متذلل له، وكانت هناك مجموعة أسباب موضوعية لذلك الانكسار.. أمر ما [(١)]- شغلني لخمس سنوات خلت، وقدر أنه وصل مرحلة مهمة وحرجة في تلك العشر الأواخر..

.. كنت منكسراً.. الآن أفهم أن هذا الانكسار، التذلل لله، هو الطريق الوحيد ربما لذلك الكسر الذي دلفت منه لذلك العالم الآخر..

(١) كنت أرسلت وقتها مخطوط كتاب "البوصلة القرآنية" إلى دار النشر.

انكساري في الداخل، هو الذي فتح ذلك الكسر على الخارج..

* * *

أقول إنها كانت ليلة مميزة..

لست متأكداً الآن إن كانت وترية أو لا..

ذاكرتي تبدو مغبشة عندما أحاول استحضار التفاصيل..

لكني أذكر صوت الإمام، حنوناً رقيقاً هادئاً قوياً، تقدم من حنجرته إلى الميكروفون ليقتحم قلبي كما يدخل السكين الحاد في قطعة من الزبدة الساخنة..

وساح قلبي كما تسيح الزبدة، هناك.. في ذلك الركن البعيد الهادئ، من ذلك المسجد الضخم، في تلك الليلة المميزة - من تلك الليالي العشرة الأواخر.. في ذلك (الرمضان) قبل الفائت..

لا أذكر التفاصيل كثيراً..

لكني أذكر أن الدموع كانت سحابة، ورجفة قلبي كانت زلزالاً، وأعصابي كانت سيالة..

أذكر أني تحولت فجأة إلى كومة من الريش المضيء الملون المعلق في أعلى سقف المسجد..

.. وأذكر أني تناثرت، ريشاً أبيض مسحوراً

يسقط كندف الثلج وبنقاء الثلج على الحقول والوجوه والشوارع..

.. وأذكر أني تسايلت - تسايلت جزيئاتي وذراتي وخلاياي وكل مكوناتي وساحت في المكان، وسرت مثل تيار كهربائي بين الأفراد الواقفين في الصفوف خلف الإمام، متأكداً أنهم أحسوا بالكهرباء تلسعهم في أقدامهم، ولعلهم تصوروا تسريباً ما في واحدة من المدافئ الكهربائية - أو لعلهم تصوروا احتكاك ملابسهم بالسجاد.. لكنها الكهرباء التي كانت تسري مني، وتتسايل من جزيئاتي..

.. واستحلت إلى مجموعة من الإلكترونات والبروتونات التي التحقت بمثيلاتها في أسلاك الكهرباء المتصلة بأدوات الإنارة الموجودة - ولقد زادت من وهجها - وربما أصابها العطب بعد ذلك..

كانت ليلة مميزة.

وفي وسط عاصفة الضوء والوهج وزلزال الرعشة وفيضان الدموع وبركان الأحاسيس والمشاعر، أحسست بنفسي تتسرب من ذلك الكسر الموجود في داخلي.. كان الظلام دامساً في الداخل، لكن البرق أنار سمائي، واستطعت أن أتلمس الطريق..

.. وكنت أنساب من هناك..

وكان البرق يضيء، والرعد يضرب،

.. وكنت أغرق.

لست متأكداً كم استمر الأمر. ثوان أو دقائق أو ساعات أو دهور.

أعتقد أن أموراً كهذه لا تخضع لمقياس الزمن..

.. ولست متأكداً بالضبط الآن هل شعرت أني أنا أصبحت مركز الكون، أم أن الكون كله قد تكثف وتركز في..

.. لكنه كان شيئاً رهيباً..

وفي خضم العاصفة والزلزال كنت لا أزال واعياً بما فيه الكفاية لأفكر أنه رمضان، وأنها ربما تكون ليلة القدر، وأن علي أن أستثمر الأمر بدعاء ما، قد يتكلل بالاستجابة.

.. وفي خضم العاصفة والزلزال كنت لا أزال واعياً بما يدور في عالم الموتى: كان الإمام يقرأ في سورة الإخلاص. وكنت في حالتي تلك - أستكشفها كأني أسمعها للمرة الأولى - كأنها سورة أخرى غير تلك التي كانت أول ما حفظت في عهد طفولتي الغابرة، كنت أبكي بإخلاص على سورة الإخلاص. وكنت في خلفية وعيي أتعجب لأني لم أجدها سابقة مثيرة للبكاء أو للانكسار..

.. وفي خضم العاصفة والزلزال كنت واعياً - بحزن لا حدود له - أنه رمضان، وأنها قد تكون ليلة القدر - وأن ذلك كله سيزول مع انقضاء الشهر.. وأنه سيظل مجرد ذكرى مشوشة وغائمة لتجربة قد تكون حدثت وقد لا تكون..

.. وقد لا تتكرر أبداً طيلة - ما اعتقدت أنه حياتي -

كان البرق لا يزال يضيء الأفق..

وكان قريباً جداً لدرجة أني مددت يدي لأمسكه.. وأمتطيه..

.. وعندما سجدت طلبت شيئاً واحداً..

أن يستمر ذلك!.

* * *

مرة كتبت لك عن شيء كهذا، عندما كنت أتحدث عن رمضان.

قلت لك إنه في رمضان توجد معجزة، حدثت لي مرة من قبل..

وكانت المعجزة التي حصلت لي استثنائية تماماً.. ليس من ناحية أن دعائي قد استجيب خلال فترة لا تتجاوز عشرة أيام..

ولكن الطريقة التي استجيب بها الدعاء كانت استثنائية جداً، ولم تخطر ببالي قط - ولم يدر في خلدي أن الأمر سينتهي هكذا.. وأن الخشوع المميز لتلك الليلة المميزة سيفتح عليّ العالم ويجعلني أخرج من دوائر القوالب المتداخلة إلى الأفق الشاسع والزمن الممتد والألوان المختلفة والرؤية المختلفة..

لقد كان خشوعاً رائعاً - وتجربة مذهلة - لكن ما مررت به بعدها كان أروع وأكثر إذهالاً.. كانت تجربة الخشوع -مهما امتدت في عمق الإنسان - تجربة فردية..

لكن الله- في عليائه- شاء شيئاً آخر، ومن ذلك الكسر الذي دلفت منه إليه، أخذ بيدي وأخذني إلى انكسارات الآخرين وهمومهم وأوجاعهم.. وأفهمني أن التجربة الأروع والأهم والأكثر ندرة هي أن أنفتح على الآخرين - وأن أكسر حاجز الذات وقوقعة الأنا وصدفة العزلة لأنطلق في ذوات الآخرين ودموعهم وانكساراتهم وأحزانهم النائية البعيدة.. (حتى أحزانهم التي لا يعرفون.. بل بالذات أحزانهم التي لا يعرفون)..

.. علمتني تلك التجربة أن الخشوع الحقيقي -

مهما كان رائعاً ومذهلاً ومختلفاً - لكنه لا يكون بأن أتسرب من الجماعة عبر ثقب ما لأحلق في عوالم النشوة وأطياف الألوان اللامرئية والمشاعر اللامجربة - ولكن بأن أتعمق وأنا في مكاني عبر الجماعة - أن أزداد تواصلاً مع الآخرين وأن يسري بيني وبينهم التيار الكهربائي الذي يزيد الضوء سطوعاً في الداخل، أن تتحد جزيئاتي مع جزيئاتهم وتتفاعل ذراتي مع ذراتهم، وتنساب إلكتروناتي مع إلكتروناتهم..

الخشوع الحقيقي هو ذلك الذوبان السيّال للـ (أنا) في الـ (نحن) - وذلك الانصهار المميز مع الآخرين الذي يلغي الحواجز والقوالب والقضبان التي تحبس كل واحد منا خلف الأسوار العالية..

لم أكن لأصدق ذلك لو لم أمرّ به: دوماً كانت فكرتي عن الخشوع فكرة فردية وذاتية ومتعلقة بالتركيز الذهني والانسجام مع الذات في لحظة خضوع لا يمكن لأحد - غير ذاك الذي يعلم ما في الصدور - أن يكشفها..

وعندما مررت بتجربة كانت - في ظاهرها - ترسخ هذه الفكرة، سجدت وطلبت منه أن يديم هذا الشعور ويبقي الخشوع..

.. فأخذ بيدي - وخلال عشرة أيام فقط - كان يستجيب للدعاء بشكل مختلف عما توقعته..

* * *

.. أعترف: لم أفهم أول الأمر، ولكن الآن وبعد أكثر من سنة، وبينما الأمر يكاد يشرف على الانتهاء، أنظر من بعيد، من فوق التلة العالية، حتى لا أقول القمة العالية، أرى الأمور بشكل أوضح.. وأنقى.. وأكثر صفاء ودقة.

الآن، وقد أشرفت العاصفة على الرحيل، وأوشك الزلزال على الانتهاء، أستطيع أن أقرر بهدوء أكثر، وأحكم على الأمور بدقة أكبر..

.. الآن، وأنت تعد أوراقك، وتكاد تحزم حقائبك، أستطيع أن أتكلم بحرية أكبر، وبتفصيل أدق.

* * *

بدأ الأمر عادياً جداً، وعابراً جداً.. وبعض أهم الامور وأثبتها تبدأ عادية وعابرة.

أو إنها تبدو على الأقل كذلك..

شخص ما، عادي تقريباً إلا من انكساره وكآبته [ذات الأسباب الموضوعية تماماً] - وجد نفسه في ألم شديد في أسنانه، ووجد نفسه أمام باب عيادتي

وفق سلسلة من الظروف التي لا دخل لي بها على الإطلاق..

.. وعدا ألم الاسنان، وربما لو بحثنا لمئة عام، ولو نقبنا في تاريخه، وتاريخي لعدة قرون - لما وجدنا أي شيء مشترك بيني وبينه..

إنه فقط ألم الأسنان..

عادي وعابر.

لكن كان هذا في ظاهر الأمر وحده..

تعرف طبعاً ما حصل وقتها..

فقد كنت أنت بالذات هو هذا الشخص.

* * *

يا صديق..

في عالم المادة الذي نعيش ونغرق ونموت فيه، يبدو أنه لا يزال ثمة متسع لما نسميه بالأرواح لكي تتحرك، ولكي تتعارف ولكي تتآلف فيما بينها..

.. وفي عالم القوانين المادية الصماء والأسباب الفيزيائية الجرداء، يبدو أنه لا يزال هناك هامش لما تعودنا أن نسميه بالأرواح لكي تتدخل.. وتفرض شروطها..

وعلى تلك الجبهة العريضة، تتحول حياتنا

واختياراتنا وإرادتنا إلى ساحة حرب، تتنازع فيها قوانين المادة وأسباب البقاء مع تلك الجنود المجندة غير المرئية: الأرواح..

ولا يزال ثمة أحيان، تنتصر فيه تلك القوى غير المرئية - تلك الجنود المجندة - معدودة العدد محدودة العدة - على هيمنة تلك الأسباب الموضوعية القوية في عدتها وعددها وترابطها فيما بينها..

.. لا تزال الارواح موجودة تطوف حول العرش وداخل القلب وتتغلغل في داخل أجسامنا، تعلن حالة الطوارئ أحياناً، وتستنفر قوتها في أحيان أخرى، وتدق على طبول الحرب في بعض الأحيان..

.. لا تزال تلك الجنود المجندة تدهشنا - بإمكانية انتصارها على ما نتصورها أنها كل الأسباب والقوالب التي تهيمن على عالمنا.. والتي كنا نظن أن لا فكاك ولا مهرب من سيطرتها علينا..

* * *

.. ولو نبشت أنت في تاريخك.. ونبشت أنا في تاريخي - باحثين عن نقطة مشتركة تجمع بيننا - وتآلف بين روحينا.. وتجعل طريقينا المختلفين

يتوازيان أو حتى يلتقيان في نقطة واحدة، لبحثنا دهراً - عبثا دون جدوى.. "باستثناء ألم الأسنان عند الماء البارد!"

لا اهتمامات مشتركة. لا شيء - مهنيا مشترك. لا حياة متشابهة. لا تفاصيل في طريقة العيش مشتركة.. لا نماذج أصدقاء متشابهين.. ولا نموذج صداقة متشابه..

لا شيء هناك - لا في الظاهر ولا في الباطن - كان يشير إلى إمكانية أن يجمع شيء بيننا..

لا شيء كان سيجمع ذلك الضابط الشاب الذي قضى حياته بين الخنادق والسواتر في ساحات القتال والذي تتجمع حوله - حين يعود من وحدته صحبة -لا أستطيع إلا أن أتحفظ على أي وصف لها وتحاصره -من كل جهة، لا شي كان سيجمعه من طالب طب الأسنان الذي يعيش في برجه العاجي بين كتبه ومثله وعقائده وأحلامه..

.. بين الخندق في الجبهة، والبرج العاجي المبني على كوم من الكتب، كانت المسافة هائلة، والهوة واسعة، لو أنفقنا ما في الأرض جميعاً في محاولة ردمها لفشلنا..

المسافة بين كتبي وعقائدي ومثلي، وثلّة السوء

خاصتك، كانت أوسع من أن يصل بينها أي جسر.. مهما بلغت تكاليفه..

لست هنا في صدد مقارنات، فلكل منا ظروفه، لكن كان لكل منا عالمه الخاص المختلف، وزمنه المختلف، كان كل منا يعيش في قارة مختلفة عن قارة الآخر، بل في كوكب آخر..

بل في مجرة أخرى..

كان كل منا قد ركب قطاراً مختلفاً، من محطة مختلفة، وأخذ وجهة سير مختلفة، وكان يمكن أن يدور القطار حول الكرة الارضية عدة مرات دون أن يلتقي بالقطار الآخر.. حتى ولو من بعيد..

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

لكن - رغم كل الحيثيات السابقة - أثبت الأمر في نهايته أنه لا قيمة له، وأن كل الفروقات ممكن أن تذوب وتندرس في لحظة واحدة - وأن الهوة الواسعة بين الخندق الترابي والبرج العاجي يمكن أن تردم كما لو أنها لم تكن أصلاً..

وفي لحظة واحدة - أو دهر كامل - بدأ الأمر عادياً جداً وعابراً جداً. وبعض أهم الأمور وأثبتها تبدأ عادية وعابرة..

.. وعندما دخل ذلك الشخص العادي والعابر

والذي يشكو من ألم عادي وعابر في أسنانه، كان باطن الأمر كما ظاهره: عادي وعابر..

وكان منتهى الأمر، كما مبتداه: عادي وعابر: علاج ما، ويذهب الألم، ويعود كل منا إلى مجرته.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

ولكن.. المسألة، ليست بالانفاق - صحيح أن الأرواح جنود مجندة

لكنها ليست مرتزقة..!

* * *

يبدو أن الانكسار هو أقصر مسافة بين شخصين.. مهما كانا ينتميان كل إلى مجرة مختلفة..

وعندما جئت تجر انكسارك - الذي لم يكن له علاقة بألم الأسنان طبعاً، كان لا بد لشيء ما أن يحدث - ذلك أنك كنت قد جئت على قدر يا صديق..

.. ولم يكن قد مضى أكثر من عشرة أيام إن لم يكن أقل على انكساري في تلك الليلة المشهودة التي تسربت فيها عبر ذلك الكسر في داخلي.. وكنت لا أزال تحت تأثير ذلك المنخفض الذي مررت به

وعبرت منه إلى عالم الأحياء وعرفت ما يعرفون وشعرت بما يشعرون..

والتقى ذلك الكسر بذلك الانكسار، وكان لا بد لشيء أن يحدث..

كان لا بد لذلك التجاذب أن يحدث، ويتحول الانكسار إلى ثقب أسود هائل ابتلع كل شيء..

لم أكن واعياً لما يدور في بدء الأمر. لكني وجدت نفسي في خضم ذلك التفاعل المتسلسل الذي سحبني فجأة وسحب أوراقي ومن دون سابق إنذار..

.. ولم أفهم بالضبط أن تلك الدعوة المشرفة على الإخلاص في ذلك السجود ستستجاب بتلك الطريقة، ولم أفهم وقتها أن ذلك الخشوع الذي حاولت أن أمسك بتلابيبه في تلك الليلة اللامنسية، سيأتيني بتلك الطريقة التي ستغير فهمي ووعيي ونظرتي للأمور..

لم أفهم في البداية، ثم فهمت!.

* * *

Chilli House[1] - بيت الفلفل، تلك الأمسية التي حكيت لي فيها - وذلك الفلفل الذي سكن في كل تفاصيل حياتي ولسع لساني وكل نهايات أعصابي..

.. وذلك الشاي الذي لم نشرب، إذ تأخرنا وذهب بائع الشاي بعد أن يئس منا - لم أكن أدري أني سأعوض عنه بعشرات الأكواب، أشربها وأنا أكتب وأشربها وأنا أنزف وأشربها ..

.. وذلك الصدق الذي لم أصدق - لم أدر كيف استطعت أن تكسر كل تلك الحواجز وتحكي كل ذاك الذي حكيت - الآن أدري: شيء من القدر، وشيء من الانكسار، وكلها أشياء من الإرادة الإلهية التي أرادت لنا ما أرادت..

لعله الانكسار الذي كنت تمر به، فجأة قررت أن تكسر الحواجز وتحطم القمقم وتطلق من صدرك ذلك المارد الكئيب الذي كان يعاني دون أن يدري كم كان يعاني، فجأة عريت صدرك وانطلقت ترمي بتلك الأشياء التي تثقله وتكبله وتقيد شهيقه وتحبس زفيره.

.. ووقفت مشدوهاً أتلقى ما ترميه بصدر عار

(١) اسم لمطعم حديث في بغداد- الحارثية- شارع الكندي.قبل الاحتلال طبعا..

ورأس فارغ ويداي مرفوعتان بإشارة الاستسلام.. لم أصدق للحظة ما يحدث. لم أصدق ما كنت تقول: كل ذلك الماضي، كل ذلك الفراغ كل تلك المعاصي، وكل تلك الكبائر.. وكل ذلك البعد.. وكل ذلك الصدق..

.. وللحظة، أصدقك القول، عندما جئت على ذكر اسم شخص من معارفك، وكان معروفاً جداً في الأوساط الاجتماعية بسوء سمعته - نظرت متلصصاً إلى من حولي في المطعم، لأطمئن أنْ لا أحد يعرفني هنا، إذ لم أرد أن يشاهدني أحد مع واحد من معارف هذا الشخص.

تخيل!.

أتذكر ذلك الآن، وأقارن تلك النظرة المتلصصة الخائفة بنظرتي اليوم التي لا أخفي غبطتها عندما يراك أحد من معارفك القدامى في المسجد مثلاً، خصوصاً وأنا أراقبك وأنت تقف أمام باب المسجد بعد صلاة الجمعة، والناس تخرج أفواجا - بالذات في المنطقة التي شهدت بداية ضياعك وتخبطك الطويل الطويل - ويقف أولئك الذين يعرفون - وهم لا يصدقون ما يرون - فيسلمون ويسألون ويتساءلون، وأقف أنا لأرقب وجوههم وأرصد ردود أفعالهم - ولا

أخفي شعوراً سرياً يغمرني بما يشبه الفخر: لقد كنت جزءاً من ذلك، لقد استعملني الله في ذلك..

ما كان ليخطر في بالي أبداً في أمسية الفلفل تلك، أن نظرتي الخجولة تلك التي تنظر بوجل من بين الموائد خوفاً من أن يراني أحد معك - ستستبدل بتلك النظرة المسترخية الفخورة على باب المسجد..

ليتني عرفت! ربما كان ذلك طمأنني قليلاً، وأعطاني بعض الهدوء والسكينة، فكل الذي أذكره الآن - أنني أمام كلماتك - كنت أراك في محيط هائج ومضطرب، تكاد تغرق، وتمد يدك لأنقذك.. وكنت أعرف العوم - لكن في مسبح هادئ ولطيف - وليس في محيط أمواجه عاتية كالحروب التي مررنا بها وعالية كالجبال التي نسمع أن الطائرات ترتطم بها..

في محيط كذلك - لم أكن متأكداً أني سأتدبر أمري وحدي..

فكيف كنت سأتدبر أمري في إنقاذك..

(تطلب الأمر بعض الوقت لأفهم أن النجاة الفردية - في محيط كهذا - مستحيلة، وبالنسبة إلي كما بالنسبة إليك.. وأن طوق النجاة الوحيد يكون بالأيدي المتشابكة)..

لكني لم أكن أفهم ذلك وقتها.. وقتها وقفت مرعوباً أمام الأمواج - متأملاً يدك تمتد، أنصت بكل جوارحي لكلمة الاستغاثة التي لم ينطقها لسانك ولكن صرخت بها كل ملامحك وصرحت بها كل كلماتك التي قلتها والتي لم تقلها.. ربما دون أن تدري - وربما ليس بكامل وعيك - لكنك كنت تريد أن تهتدي، وكانت يدك تتلمس في الظلمة داخل الظلمة تبحث عن يد تنقذها..

على حافة الهاوية وقفت، كان يمكن أن أحلق عالياً - وكان يمكن أن أسقط في القعر..

كان يجب أن أفعل شيئاً. كان لا بد من ذلك. كان يمكنني أي شيء وكل شيء إلا أن أظل مكاني وأنا أراقبك تغرق..

.. تلك الأمسية في بيت الفلفل، وذلك الشاي الذي لم نشرب، والفلفل الذي غادر بيته ليسكن بيتي ويستوطن قلمي ويستعمر رأسي..

قلت لك، ونحن قرب سيارته.. لن أتركك هكذا.. بالحرف..

* * *

ليلاً وكان قد مضى على انتصافه ساعة أو أكثر.. وأنا أقود سيارتي عائداً إلى البيت.. لم أكن

أدري أن شيئاً أبداً لن يعود كما كان، وأنني لم أكن أقود سيارتي عبر ذلك الطريق المظلم - بل كنت أقود شيئاً آخر عبر نفق مظلم لم أكن أعرف نهايته ولم أكن أدري أن كان فيه نهاية أصلاً..

.. ليلاً.. وكان قد انتصف.. عدت ورأسي مثقل برأسك - أحملهما معاً على رقبتي فوق كتفي، لم يكن يكفيني رأس واحد مثقل بهمومه وضغط دمه ومشاكله.. ليأتي رأسك الذي يحمل ٣٧ عاماً من الهموم والضغط والتخبط ليضعها فوق رأسي..

حاولت أن أنزعهما معاً لأضعهما على الطاولة. فشلت، نام رأسك ولم ينم رأسي، ظل يتقلب وقد أربكه الوضع الجديد..

فجراً، حملتهما معاً وذهبت للصلاة. سجد رأسي - وهو يزال يحمل هموم رأسك، وهناك في أقرب مكان يمكن أن يكون فيه رأس من خالقه - وقفت على تلك الحافة وطلبت منه أن يساعدني، يلهمني، أن يمنحني القدرة والفكرة على عمل شيء..في ذلك المكان القريب.. طلبت منه أن يفعل شيئاً من أجلك..وأن يجعلني أفعل شيئاً لأنقذك من هذا الذي كنت فيه..

وعلى تلك الحافة التي اختلط فيها اليأس بالأمل،

والتحليق بالسقوط والاخلاص بالخوف - وقفت مجرداً من كل شيء. لا، قلت لك إني لم أبك.. لكن دمعتي كانت قريبة، كان الأمر وقتها أكبر من البكاء، وكان رأسك يثقل رأسي..

صباحاً، وقد أشرق الامل، وجدت نفسي وأنا أفعل الشيء الوحيد الذي أتصور أني أتقنه أكثر من أي شيء في العالم - الكتابة..

جلست لأحرق تلك الجمعة العظيمة من أجلك - وبدلاً من أن أقدم رأسي قرباناً قدمت وقتي.. لحظة تلو لحظة أحرقها وأنا أكتب كلمة تلو كلمة.. عشر صفحات وقتها على ما أذكر، حلقت وسقطت، نزفت وشهقت، وتسلقت وتدحرجت.. لكني كتبت..

مساءاً، والشمس لم تغرب حقاً، عرفت أني بدأت أتلمس الدرب في النفق - كان مظلماً لا يزال، كان موحشاً لا يزال.. لكني كنت أستطيع التحسس.. قلت لزوجتي.. لقد وجدت شيئاً جديداً..

كانت تلك هي رسالتي الأولى.. وكنت فيها أريدك ان تبدأ بالصلاة..(١)

---

(١) كانت تلك هي الرسالة الأولى بعنوان "رأسي المثقل برؤوس الآخرين" و قد بقيت مسودتها في بغداد للأسف عندما غادرتها..مع بقية الرسائل التي لم ترقن إلكترونياً.

.. وقتها أحسست أني أحتاج إلى دعم أكبر وإسناد أكثر قوة - كنت أفهم أني أريد أكثر من مجرد الإعجاب بكتابتي، لم أكن أريد التأثر- كنت أريد التأثير، كنت أريد التغيير وكنت أفهم تماماً أني مهما كنت صادقاً في ما كتبت فإن كلماتي لن تفلح في اقتحام قلبك ما لم يشأ هو، مقلب القلوب ذاك..

.. وكنت أريد منه -هو- عز وجل ذلك، لذلك تضرعت، توسلت، وخلال الأيام الثلاثة التالية كنت أمامه مثل خرقة بالية مرمية في الشارع - وأقدمت خلال هذه الايام الثلاثة على عمل استثنائي ونادر، تعرفه طبعاً، لقد ختمت القرآن بأكمله من أجلك، حرقت وقتي لحظة لحظة من أجل التقرب إليه سبحانه وتعالى، وفي ثلاثة أيام عاصفة عصف بي القرآن وأنا خرقة بالية أمامه..

كنت أريد أن أصفي نيتي - أن أنقي دواخلي.. وكان القرآن خير مطهر.. ولثلاثة أيام شققت عن صدري وعريت قلبي لأغمِسَه في ذلك المطهر..

ثلاثة أيام: السبت، الأحد، الاثنين..

وفي مساء الاثنين، استلمت أنت الرسالة..

* * *

.. الثلاثاء صباحاً، حدثت معجزة..

ففي المساء اتصلت بي وقلت لي بصوت يؤلمه الاعتراف "رغم أن الأمر يخصني وحدي.. إلا أنني أردت أن أخبرك.. لقد بدأت بالصلاة اليوم.."

.. وكان ذلك مثل نقطة ضوء في ذلك النفق المظلم ودربه الموحل الموحش..

لن أقول لك إن الهاتف كهربني وهو ينقل لي الخبر، لكني سأقول لك إني فهمت أنه لا عودة - لا فكاك - علي أن أواصل..

علي أن أستمر في ذلك النفق، وصولاً إلى -ما تصورت ابتداءاً أنه هدايتك فقط..

* * *

لكن المعجزة الأولى لم تتواصل.

لا أقصد أنك انقطعت عن الصلاة. فذلك لم يحدث..

لكن الأمور الأخرى لم تكن بهذه السهولة واليسر.

وأتصور أنه من طبيعة الأشياء أنها لا تستمر هكذا، كان لا بد "لإبليس ما" في داخلك أن يهاجم، ممثلاً لكل ما هو سيئ في حياتك ، فقد كان قد أخذ على حين غرة، وكان مطمئناً تماماً إلى

سيطرته عليك منذ حوالي العقدين - إلى درجة أنه هجرك مطمئناً - وكان ذلك منطقياً تماماً فماذا لديه ليفعله في البيت الخرب البيت الخالي من قضية؟.. وفجأة وفي غفلته عنك، وجدك تصلي، كنقطة تغيير وبداية جديدة لحياة كان قد حرص على أن تكون فارغة تماماً، فجأة وجدك تبدأ ذلك الدرب الذي لا يريدك أن تواصله..درب العودة إلى إنسانيتك...

وكان لا بد له أن يهاجم. كان لا بد له أن يستنفر قواته ويجهز خططه ومعداته، كان لا بد له أن يحاصرك ويدخل إليك من أي مكان يمكنه أن يدخل..

.. كان ذلك منطقياً جداً..

ولقد دخل من الوسوسة..

واستطاع أن ينفرك مني، ألقى عليك وعلى قلبك وعلى عقلك تلك الشكوك والتساؤلات المريبة التي تجعل بينك وبيني حاجزاً.. لقد زرع في داخلك ذلك الخوف الذي دفعك بعيداً.. سارحاً في خيال (إرهابي) مذعور..

.. وكان الشد والجذب. وكان التهرب المتخفي حيناً والمتعذر حيناً والواضح في بعض الأحيان.

.. وصار هاتفك لا يرد. ووجهك ارتدى قناع الجمود، ولسانك صار يتعثر بالأعذار..

لم يستطع إبليس أن يجعلك تتخلى عن تهذيبك - وربما كان البعض من الود والاحترام يلعبان دوراً في ذلك. لذلك كنت مذعوراً لكنك لم تهاجم..

واكتفيت بالهرب والصدود..

.. وكان الشد والجذب. والركض والقلق. والدعاء والأرق.

أفكر الآن: إن إبليس رغم ذكائه لم يلعبها بشكل صحيح.

* * *

فرغم أنه بدا وقتها ناجحاً جداً في حركتي الوسوسة والنفور تلك، إلا أن ذلك لم يزدني إلا حرصاً ودعاءً وقلقاً..

لو أنه تركك وقتها - لربما تركت نفسي مطمئناً على نجاح الرسالة الأولى، كنت سأفكر: إنه غنيمة سهلة. لقد صلى من المحاولة الأولى، الخطوات التالية ستكون أسهل..

وكان اهتمامي سيقل، وإخلاصي سيقل، وانفعالي بكل ما يدور كان سيهدأ..

.. وكنت ستضيع.. إلا لو شاء الله شيئاً آخر..

لذلك أقول إن إبليس هذه المرة لم "يلعبها" بشكل صحيح تماماً.

فلقد شدني النفور أكثر مما جذبني الانجذاب. ووجدت نفسي وقد سقطت أكثر فاكثر في شراك ذلك الفخ الذي لا نجاة منه، وجدت نفسي -بالذات وجدت قلمي وأوراقي- في خضم ذلك التفاعل المتسلسل الذي لا يكاد يوقفه أو يمنعه شيء..

وكل ما كنت أريده هو أن تكون أوراقي طرفاً في ذلك التفاعل- أن تساهم فيه، كنت أجهد نفسي لتصير الأبجدية طرفاً في تغييرك..في تعبيد الدرب أمامك لهدايتك..لحياة أخرى هي على هدى.. بأوسع ما يمكن للكلمة أن تحتوي من معاني...

* * *

يا صديق..

تذكر طبعاً أول مرة زرتك فيها - تلك الزيارة الليلية المفاجئة، في شقتك - الشقة رقم خمسة في الطابق الثالث من تلك العمارة في الحي السكني الذي كنت فيه قبل أن تنتقل..

ساعتها كانت الكهرباء مطفأةً. وجئت أنا كشبح في الظلمة واستقبلتني أنت كشبح في الظلمة..

أرى الآن الموضوع بشكل مختلف.. أقصد موضوع الظلمة.. فالأمر لم يكن مصادفة. بل كان قدراً.

ففي الظلمة رأيت بوضوح، رأيت الظلمة التي تلفك طبقاً فوق طبق، ثلاث ظلمات رأيتك في غياباتها.. واحدة تلو الأخرى..

كانت هناك ظلمة الحياة الخالية من هدف .. الخالية من معنى ومن قضية - كانت شقتك جميلة حسب المقاييس السائدة وتصميم أثاثها أنيقاً - لكنها بدت موحشة كما لو كانت قطعة من صحراء الربع الخالي.. بدت فجاة مكاناً مثالياً يحكي قصة الحياة التي بلا معنى: لا أقصد فقط حياة العازب التقليدية وما يلحق بها -إنما الحياة المفرغة والفارغة من أي قيمة- الحياة الخالية من مرجع، ومن بوصلة، ومن رادار، ومن كل ما يمكن أن يحدد لك هدفاً.. وبالتالي طريقاً لهذا الهدف..

وكان هناك ظلمة تنتج عن الظلمة الأولى.. وتؤدي لها، ظلمة البعد عن الله، ظلمة المعصية التي كانت لا تزال لم تحسم أمرك معها ولم تقطعها.. وكانت تخيم على حياتك كما يستوطن الحزن ويقيم في ملجأ الأيتام..لم تكن المعصية لهواً عابراً للوقت والعمر- بل كانت تعبيراً.. عن ذلك الفراغ كله..

.. وكانت هناك ظلمة البعد عن الآخرين، كنت قد عزلت نفسك خلف أسوار مكهربة محاطة

بأسلاك شائكة وخلفها حقول ألغام خرائطها مفقودة - محاصراً نفسك بالشكوك والأوهام والهواجس والظنون - قاطعاً كل الجسور التي يمكن أن توصلك إلى الآخرين.

.. وكانت هناك، بعد كل شيء، وربما قبل كل شيء، ظلمة البعد عن نفسك، كجزء من بعدك عن كل الآخرين، كنت قد قطعت الجسور حتى عن نفسك - وعزلت نفسك بنفسك حتى عن نفسك، غارقاً في كآبة لا حدود لها، كآبة من النوع المرضي والخطر - تؤذي صاحبها أكثر مما تؤذي أحداً آخر، وكانت هذه الظلمة ظاهرة بالذات على وجهك..

.. وفي ظلمة انقطاع الكهرباء - العرضي جداً - رأيت تلك الظلمات الثلاث المستديمة المقيمة في داخلك وفي خارجك...

يتوهم الناس أنهم يخرجون من بطون أمهاتهم التي خلقوا فيها ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ في ظلمات ثلاث، والحق أنهم يخرجون من تلك الظلمة الإجبارية، إلى ظلمات أخرى - طبقاً من بعد طبق - يختارون أن يغرقوا فيها..

في الظلمة رأيت كما لم أفعل من قبل. لا ظلال ولا رتوش. فقط ظلمة حالكة..

وعلى الضوء الخافت لذلك الفانوس الكئيب، أكاد

اقسم أني رأيت حزناً لا حدود له يقطر من عينيك - كانت نظرة خاطفة تجمعت فيها كل أحزان القرى النائية، وأحزان الحقول المحروقة التي تحولت إلى مقابر جماعية لجنود مجهولين ضاعت ملامحهم ووجوههم وهوياتهم..

على الضوء الخافت الكئيب للفانوس الممل، رأيتك تحت المجهر، مجرد كائن أحادي الخلية يجوب بحر الظلمات منعزلاً ومنفرداً.. بعيداً عن كل شيء، منفصلاً عن أي شيء، وحيداً وحيداً من أي شيء..

.. ولو نفد الوقود من الفانوس.. وسادت الظلمة، لكانت تلك هي صورتك الأوضح..

* * *

.. على السلالم هبوطاً درجة بعد أخرى، فهمت أن عنوانك الحقيقي ليس في تلك الشقة حقاً حقاً - بقدر ما هو تلك القارة المجهولة من ذلك الكوكب المهجور في تلك المجرة النائية..

نعم، وحيداً في مجرة رأيتك، غريباً في مجرة، منعزلاً ومنفصلاً ومستقلاً عن أي جدوى محاولة اتصال لمجرة أخرى مأهولة..

وحيد في المجرة دونما أمل، غريب فيها دون أي وسيلة للتواصل..

نعم، هذا أنت - كما رأيتك بوضوح - في الظلمة..

وحيد في المجرة..

* * *

خطوات أخرى ..بعد انتهاء السلالم.. وقبل أن أصل سيارتي..اكتشفت أن تلك الغربات الثلاث .. ليست حكراً لك وحدك.. بل هي عنوان ذلك الجيل المنكسر كله ..-حتى لا أقول الأمة كلها لأن كلمة الأمة استهلكت أكثر مما يجب في منابر التباكي ومؤسسات الشعارات-.. كل الجيل، جيلي وجيلك الذي يكبرني قليلاً والجيل الذي يصغرني قليلاً- كله يسكن تلك الغربات: غربة ببعده عن الهدف، عن المعنى، بحياة خالية من المشروع الحقيقي، بالتغريب الذي سكنه وصار له هوية.. غربة مستعصية تتجلى في أن أقصى طموحه صار الحصول على تلك " الفيزا ".. وإذا صار إيجابياً جداً صار أقصى طموحه أن يجعل بلده نسخة من مظاهر بلد الفيزا..

كل ذلك الجيل يسكن تلك المجرة..حتى لو لم يكن يدرك ذلك..

ووجدتك ممثلاً عن الجيل كله.. تسكن بالنيابة عنه، وبالأصالة عن نفسك، في تلك المجرة..

.. وكان علي أن أستقل مركبة فضائية لأتواصل معك. كان علي أن أبحر من برجي العاجي في قارتي المنعزلة في كوكبي الطيني ومجرتي التي اعتقدت أنها مأهولة، لأبحث عن تواصل ما، مع شخص وحيد وغريب يرفض التواصل مع أي كان، وقد قفل على نفسه قارته وكوكبه ومجرته -

بين شخصين يسكنان في مجرتين متباعدتين كان علي أن أجد في اللغة كلمات لم تستهلك، وفي المرافئ سفناً لم تبحر، وبين مراكب الفضاء واحدة لم تطلق..

كان علي أن أنسف الحواجز. وأبحث بين الألغام، واصل إلى ذلك السور المنيع الذي يفصلك عن الآخرين - لأجد فيه منفذاً، ولو صغيراً، لأصل إليك فيه - متجاوزاً الأسلاك الشائكة المكهربة..

كان علي أن ألغي المسافات.

وقد كانت شاسعة.

* * *

مع الوقت اكتشفت أن ما يجب أن أصله ليس رأسك أنت، وإن كنت هدفاً أولياً، إلا أني اكتشفت

أن علي أن أركز عليك باعتبارك نموذجاً لذلك الجيل..

وكنت فعلاً نموذجاً جيداً فعلاً.. كنت بالضبط ما يجب أن يتوجه له قلمي، وقلم كل من لا يريد لكلماته أن تكون حكراً للرفوف العالية ونقاشات الأكاديميين العقيمة.. كنت تمثل- ولم أكن أدرك ذلك في البداية- فئة واسعة هي التي يجب أن يكون التغيير الحقيقي من خلالها وبها - ومن ثمّ يجب أن تكون كل كلمة مكتوبة من أجلها ومن أجل تغيير "رأسها" لا من أجل كسبها واستدرار عطفها وتعاطفها فقط..

تلك الفئة - سواء أسميناها بالطبقة الوسطى أو لم نسمها-: فإنها تلك الفئة التي احتازت التعليم ولكنها لم تحز الثقافة: بمعنى أن التعليم الجامعي أعطاها الشهادة التي ترضي المجتمع وتقاليده، وربما الخبرة المهنية المطلوبة لوظيفة ما، لكنهم لم يحصلوا على المعنى الأوسع للثقافة: رؤية متكاملة للحياة تشمل تغير السلوك والأدوات والمفاهيم..

وهذا الجيل يمكن أن يكون فيه أمل لأنه على الأقل امتلك "أدوات" الفهم حتى لو لم يمتلك الفهم نفسه..

وكنت أنت، بالشهادتين الجامعيتين اللتين تملكهما، نموذجاً لذلك الجيل الذي حاز التعليم دون الثقافة.. جيل الانكسار والهزيمة والحلم الضائع..

الجيل الذي تلزمه لغة أخرى .. ومفاهيم أخرى .. تفهمه أولاً أنه مستغرق أو قد غط في نوم تاريخي.. من أجل استعداد لاستيقاظ .. يسمونه عادة "نهضة" ..

* * *

وفي خضم ذلك، اكتشفتُ آسفا - بل ومصدوماً - أن الغربة في المجرة هي فخ شهي ينزلق له بالذات الكتاب دون غيرهم ..

كلما كانت لغتهم بعيدة.. كانت أفكارهم تنتمي لبرج عاجي.. كلما كانوا بعيدين عن فكرة التغيير.. وعمقها وجوهرها.. كانوا يهيمون أيضاً في مجرة منفصلة عن الواقع.. غرباء في مجرة..

بل إني اكتشفت أن هذه الغربة هي التحدي الأكبر الذي علي أن أجتازه -ككاتب وكإنسان أيضاً- .. اكتشفتُ أن قلمي يجب أن يكون موجهاً إلى هناك، إلى رؤوس تجدي المحاولة معها.. أي شيء لن يضع هذا في حسبانه لن يكون أكثر من "مجرد كلمات أخرى على رف آخر" .. رأسي - بينما أكتب- أن لم يضع في باله تلك الرؤوس فلن يكون أكثر من

مـجـرد رأس آخـر.. رأس غـريـب آخـر فـي مـجـرة أخرى..

* * *

اكتشفت أيضاً أن البشر - في غالبيتهم- أغبياء، وأن معظم محاولاتهم في التفاهم عبر التاريخ كانت محكومة بالفشل. بالصمت المطبق.

اكتـشـفـت أن كـل الـلـغـات وكـل الـمـفـردات وكـل المعاجم وكل المصطلحات نادراً ما تستطيع أن تقيم جسراً من التواصل بين البشر..

اكتـشـفـت أن أغـلـبـنـا يـقـيـم سـوراً داخـل نـفـسـه، بـطـريـقـة أو بـاخـرى، ويـضـع تـلـك الأسـلاك الـشـائـكـة والألغام والحواجز..

اكتشفت أن البشر لم ينجحوا في شيء بقدر ما نجحوا في عزل أنفسهم عن أنفسهم، وبناء الحواجز والموانع فيما بينهم .. وحرق الجسور التي يمكن أن تصل بين ضفافهم. نعم، لم ينجح البشر في شيء بـقـدر مـا نـجـحـوا فـي الـلاتـواصـل - والـلاتـفـاهـم - واللاحوار.

مـعـظـم الـكـلـمـات الـتـي يـتـبـادلـهـا الـبـشـر مـنـذ قـرون تـكـاد لا تـقـول شـيـئـاً، ولا تـضـيـف خـطـوة فـي الـتـقـارب فـيـمـا بـيـنـهـم، لا تـبـنـي حـجـراً فـي جـسـر مـعـلـق بـيـن

خواطرهم - لا شيء، محض كلمات يتبادلونها فيما بينهم ويتخادعون بها فيما بينهم..

لا شيء هناك - في الحصاد الأخير- سوى التباعد.. لا شيء سوى اللاحوار.

لا شيء سوى تلك القطارات المتعاكسة التي تتلاقى - أحياناً - في المحطات، تمر مسرعة، وينظر الركاب إلى بعضهم بعضاً عبر زجاج النوافذ، وقد يلوح بعضهم بيده، وما هي إلاّ برهة وتمضي القطارات متباعدة، وهي تطلق أصوات الرحيل..

ولكن، في النهاية - ليس سوى زجاج النوافذ الجامد الأصم.

ليس سوى تلك الخوذة التي نقفل على رؤوسنا فيها، مفرغة من الهواء، مفرغة من الحوار، مفرغة من الآخرين..

ليس سوى تلك القارة المجهولة من ذلك الكوكب المهجور في تلك المجرة المتباعدة باستمرار..

هذا نحن يا صديق..

* * *

لست وحدك غريباً في مجرة. معظمنا غرباء رغم علاقاتنا وصداقاتنا وأواصر قراباتنا ومصاهرتنا وأشجار أنسابنا..

كلنا غرباء، كل في مجرة، محكومون بتلك الغربة العميقة المزروعة في أعماقنا - بلا وعي منا نحن الغرباء، بلا ذاكرة، مطروحون في العراء بلا متاع وبلا هوية..

لست وحدك وحيدا في مجرة. كلنا وحيدون مثلك، حولنا عوائلنا وأطفالنا وأمهاتنا وآباؤنا - لكننا وحيدون مثلك تماماً - وحيدون في قارة مجهولة من كوكب مهجور في مجرة لا يقطنها أحد وليس لها مكان في الخارطة الكونية..

كلنا وحيدون يا صديق. وحيدون ومتوحدون ونعاني من الوحشة والعزلة والشكوك والهواجس - لم نعد نثق بأحد منذ أن قتل هابيلٌ قابيلَ، ولم نعد نأمن لأحد منذ أن رَمَوْا يوسف في البئر.. لقد زادتنا التجارب عزلة وتوحداً، وخلف أسوار عالية صار كلاً منا وحيداً في مجرة..

لست وحدك في هذا يا صديق - إنها مأساة الإنسانية، المأزق الذي وضعت نفسها فيه، منذ أن تركت ما يجب أن تكون، منذ أن غادرت ما خلقت من أجله، ربما بان وضعك أكثر بسبب الظروف الموضوعية التي تمر بها، لكنك لم تكن بعد كل شيء - سوى غريب آخر في مجرة أخرى...

ولا شيء سيخفف من هذه الغربة إلا ذلك الإيمان الذي يمكن له أن يكون درعاً وبوصلة ووسادة وراداراً..

لا شيء سيضيء هذه المجرة إلا ذلك الإيمان الذي لا يراه البعض ولكنه ينير حياة الآخرين ويكسر الظلمة التي تغلف حياتهم..

لا شيء يمكن له أن يخفف من الظلمة والغربة في هذه المجرة إلا ذلك الضوء الذي لايرى مادياً ولكنه يغير حياة الناس ويتغلغل في قلوبهم وعقولهم ونخاع عظامهم..

تلك الغربة المزمنة في مجراتنا المتباعدة، لا دواء لها إلا ذلك الإيمان..

لا شيء إلا الإيمان.. يمكن له أن يضيء تلك المجرة ويجعل الغرباء يتواصلون فيما بينهم..

لا أقصد أبداً ذلك الإيمان التقليدي - إيمان الشفاه المتمتمة الذي لا يتجاوز الشفتين وبالجهد يصل إلى اللسان بل أقصد الإيمان- الإيمان..

الإيمان الذي يغير حياتك.. الإيمان الذي يجلب لها المعنى.. الإيمان الذي يضيئها- الايمان الذي يلعب دور المرشد.. في متاهة الحياة..

الإيمان الذي يجعلك تستيقظ من نومة طويلة كنت تسميها حياتك..

أرأيت؟.. رأسك الذي أثقل رأسي ليلة بيت الفلفل دلني على رؤوس الآخرين، وأرشدني إليها، وشدني إليها وشدها إلي..

وبدلاً من أن أقود رأسك إلى هدايته وجدتني أدخل عبره إلى النفق المؤدي إلى رؤوس الآخرين.. وصار رأسي المثقل برأسك مثقلاً برؤوس العشرات؛ بل ربما برؤوس المئات من الآخرين - لن أكتمك سراً: ربما بعضهم رؤوسهم أفضل وأصلب من رأسك - لكن رأسك كان هو المدخل.. رأسك كان هو البداية التي أثقلت رأسي..

(قلت لك مرة مبكراً جداً، نصف جاد ونصف ساخر.. نصف فخور نصف خجول: إن الآخرين يتأثرون بما أكتب أكثر مما تفعل أنت. وكانت تلك بالنسبة إليّ مواساة بائسة عما كنت أريده أن يحدث فعلاً، عشرة رؤوس في اليد أحياناً - لا تساوي رأساً واحدة على الشجرة، ما دام هذا الرأس هو هدفك..

لذلك لم تكن الدموع المنسكبة من تلك الرؤوس - تهمني كثيراً ما دمت كنت أصطدم بالقناع الحديدي الملتصق بالرأس الذي أثقل رأسي..

وكان ذلك مؤلماً جداً.

..جداً!!)..

(نسمع دوماً، في وسائل الإعلام الأخطبوطية، عن معاناة المبدعين، وآلامهم ومخاض إبداعهم المجيد، يتحدثون هم، أنصافَ موهوبين أنصاف مجانين، فنتخيل أن مخاضهم أنتج تحفة أدبية أو فنية ضخمة، فإذا هي قصيدة لم يفهمها أحد -و لا حتى كاتبها- أو أغنية سخيفة تكرر ثنائية الهجر والشوق..)

لا أعرف إن كانوا يعانون حقاً - أم إنه من لزوم عدة "التثاقف" لكني أعرف أني كنت أتألم جداً - أثناء عملية الكتابة.. وكنت أتألم خصوصاً من مسألة أن ما سأكتب سيكون محل الامتحان والفحص الفوري.. وأن النتيجة لن تكون عند "جيل- آخر لن أتشرف بلقائه وسيأتي بعد أن أكون قد ذهبت أي كما يليق بالكتاب العظام الذين يسكنون الرفوف.. بل ستكون فورية وسأرى نتيجة ما كتبت وأثره سلباً أو إيجاباً- أو ألا أرى أي أثر على الإطلاق وهو الأسوأ من أي نتيجة..

كان ذلك باختصار همّاً يسكنني.. ولأني لا أؤمن بثنائية الجسد والروح فقد كان الألم في قاع الروح هو ألم جسدي تماماً ويحتاج أحياناً إلى مسكنات علاجية.. كان ذلك شديد الوضوح علي.. على

وجهي.. بالذات على حاجبي.. لدرجة أن ابني كان يسألني: "بابا، لم حاجباك ملتصقان"؟؟!

وفي ذروات الألم والترقب - بعد واحدة من الرسائل التي كتبتها وكنت انتظرت "رد فعل ما" .. تلقيت من زوجتي درساً لا أظنني سأنساه أبداً.. طالما كنت أكتب..

كنت قد تماديت على ما يبدو في قلقي.. وأوقفتني زوجتي عند حدي. وهي تجيد دوماً إيقاف الأمور عند حدها- بالضبط كما أجيد أنا التمادي.. قالت لي بالحرف الواحد: "ومن تظن نفسك؟ ولماذا تتصور أن كل من يقرأ لك يجب أن يتأثر؟ إذا كان القرآن نفسه، وهو كتاب الخالق، قد وجد من لم يبال ولم يهتم ومن أصر أن يرفضه فلماذا تتصور أن ما تكتبه سيكون أفضل حظاً؟" ..

نعم .. لقد أخبرتك إنها تجيد ذلك..

* * *

قرأت، وقرأنا، أو سمعت وسمعنا .. حديثاً ما، لذاك الذي لا يكذب أبداً، .. لن أقول إنه لم يؤثر - ولن أقول إنه لم يلتصق في أذهاننا - لكن فلنقل إن كثيرين سمعوه، ووضعوه على رفّ ما في أذهانهم..

ربما لأنهم تصوروه - حديثاً لا يتعلق بتطبيق عملي .. ربما لو كان حديثاً عن سنة عملية مرتبطة بأي مجهود بدني لكان نال شهرة وتطبيقاً أكثر ..

وفي الحقيقة إن ظاهره يبدو أنه غير عملي - لكن باطنه الذي اكتشفته.. إنه عملي جداً.. يرتبط بمجهود تبذله بكل بدنك وروحك وكل تفاصيل حياتك .. أو موتك..

وهو عملي جداً فلن تشعر به على براعم التذوق الموجودة على طرف لسانك.

* * *

"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .. من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما، ومن أحب رجلاً لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار .."

سمعناه طبعاً - لعله لم يلتصق، لأنه لا يرتبط بعمل محدد .. لعلنا لم نتصور هذه الحلاوة أكثر من مجاز. لعلي أنا لم أتصور ذاك، لكن الآن أستطيع أن أحدد الوصفة العملية، هذه الحلاوة التي تحدث عنها الرسول الذي لا يكذب أبداً. أستطيع أن أحدد المقادير، وطريقة العمل، وطريقة التقديم..

.. وأستطيع أن أضمن أنك ستجد على طرف لسانك طعماً مميزاً كذاك الذي صار في لساني بدلاً عن الفلفل .. ، إذا التزمت بالوصفة، ومقاديرها..

.. أما اسم الوصفة فهو اسم غريب قليلاً. ومنقرض، نوعاً ما، ويحتاج إلى كثير من الشرح والتوضيح..

إنه الحب في الله ..- الذي لا بد أن ينبثق من فكر مشترك وضاء- أقصر مسافة بين مجرتين متباعدتين.

* * *

الحب في الله!..

نسمع كثيراً عن الكلمة الأولى، حق وباطل، كذب وصدق، ترهات وسخافات، أغاني وروايات..، منذ طفولتنا ونحن نرتشف المعلومات: ونكبر، وتصير الكلمة حلماً عند البعض وتسلية عند البعض، وسراباً عند البعض، وعذاباً عند البعض..

الحب؟. ليس هناك من لم يعرفه، أو يتخيل أنه يعرفه، أو يتصور أنه جربه، تارة يكون شفافً عذباً - أو كذلك يتوهمون - وتارة يكون شهوانياً جموحاً - أو كذلك يصرون - وبين هذا وذاك تكون لعبة شد الحبل التي يستهلك الذكور والإناث معظم أوقات

حياتهم المهمة في إتقانها ولعبها - غير مدركين أن الحبل الذي يشدونه يلتف رويداً رويداً على رقابهم، ويخنق رؤاهم وبصائرهم قبل أن يكتم أنفاسهم..

الحب؟ .. من منا لم يخطر بباله - ويطرق بابه - ويسهر يتقلب ينتظر جوابه. وينزلق هنا ويسقط هناك من أجله وأجل إرضائه ..

نعم.. إنه الحب. وكل ما حولنا يلقننا أنه لا بد منه، وأنه ضروري كالماء والهواء، وأنه قدر لا مفر منه، وأنه طبيعي جداً كأي مرحلة من مراحل النمو..، وأنه - إن لم يأت - فهذا دليل على نقص ما، أو خلل ما .. أو مصادفة ما ..

نعم، وكثيراً ما نوهم أنفسنا حباً لكي ننسجم مع القوالب التي وضعوها لنا في أدمغتنا، ونقوم نتقمص كل أعراضه وأمراضه المصاحبة من الأغاني والقصائد والأفلام - ونصدق الكذبة التي افتريناها بأنفسنا..

الحب، لا حاجة لمزيد من التعريف.. إنه بطريقة ما - غني عن التعريف.

لكن هذا التعريف الذي نعرفه، لا يشمل هذه الكلمة الإضافية التي ذكرتها هنا "في الله، ..".

بل إن هذا التعريف الذي عرفناه، يتصادم -

بشكل أو بآخر، ظاهر أو خفي، مع قيَمِ الله، وكل القيم المتعلقة والمرتبطة به..

لذلك تبدو الجملة غير متسقة. الحب .. في الله؟ ..

تبدو لفظة الجلالة هنا في مكان لا يليق بها، مكان رخيص ومستهلك، مكان موبوء ومليء بالعفن والجراثيم، ولم نتعود عليها كذلك: إنها هناك في الجامع - وربما في صالة الاستقبال، أو في أي مكان نظيف - لكن ليس مع الحب .. ليس مع ما نفهمه من الحب .. وما نتصوره من الحب.. الحب في الله؟..

غريب مثل جملة نشأت بالخطأ من الكلمات المتقاطعة. منقرض مثل أول مخلوق قضى نحبه في صراع البقاء، مرفوض مثل مريض بالجذام وسط عائلة موسوسة.

الحب في الله؟..

فلنعترف أننا لا نعرفه لأننا لم نتعرف عليه - لقد سمعنا به لكنه لم يبق في بالنا، لم نضعه في قائمة اهتماماتنا .. لم نفكر أننا سنلقاه يوماً، إنه مجرد كلام، وغير متسق أيضاً .. أو إنه مجرد كلام نظري غير قابل للتطبيق العملي..

الحب في الله؟ .. المتدينون عموماً، يستعملون كلاماً كهذا، شيء يقال عادة في المناسبات والمجاملات مثل بقية كلمات التهنئة والمعايدات التي تختلط فيها الأدعية بالمجاملة؛ باللامبالاة؛ بالصدق..

"يا أخي أنا أحبك في الله" - ويقسمون على ذلك فيما بينهم، ولعلهم لا ينوون غيرالصدق عندما يقسمون، فهي عبارة متداولة فيما بينهم، لذلك فهم لا يتصورونها خارج الإطار المنطوق لهذه الجملة: إنها نوع من أنواع الشكليات في العلاقة فيما بينهم: ولذلك فالحب في الله - في أذهانهم - هو محض علاقة بين متدينين، والتي هي علاقة - يفترض فيها الصدق - ولكنها لا تختلف كثيراً عن أي علاقة صداقة ومودة بين اثنين - فلنقل إنهما مهذبان ولا يتبادلان السباب والشتائم كمزاح مفضل - كما هو الحال عند كثيرين ..

لكن هل يمكن أن يكون هذا هو الحب في الله؟ .. أين الله من الموضوع أصلاً؟ - إذا كان الأمر مجرد علاقة مهذبة بين اثنين مهذبين؟..

لا . ليست تلك العبارة التي نقولها نصف مجاملين، نصف كاذبين، نصف صادقين، نصف لا مبالين ..

لا يمكن أن يكون ذلك ..

ذلك أن الرسول الذي لا يكذب أبداً قال لنا، إن هذا الحب في الله هو عنصر أساسي وصفة حلاوة الإيمان ..

.. ولقد ذقنا في حياتنا وصفات مختلفة لحلاوات متنوعة بعضها أورثتنا المرارة، وبعضها أورثنا الندم .. وبعضها قادنا إلى العدم ..

لكن حلاوة الإيمان هذه، وبالذات من خلال الحب في الله؟، لا.. لم نتذوقها .. ولم نتعرف على وصفتها.. ولم نتخيلها أكثر من مجرد كلمة أخرى تقال كمجاملة من مجاملات العيد..

حب في الله؟.. نعرف الحب ربما. لكن في الله .. - الكلمة تبدو نشازاً .. أو هكذا نظن .. حسب القوانين السائدة والتقاليد المرعية..

* * *

حب في الله ..

صداقة بين يتيمين في الملجأ . كتف تستند عليه مرة، وتحكي له مرة وتبكي له-ربما دون دموع -ألف ألف مرة .

مرة يد تمتد لك، ومرة يد تربت على كتفك . ومرة يد تمتد لتمسح لك دمعة ..

مرة إذن لتصغي لك. ومرة لسان يحكي لك، ومرة قلب يدق إذا دق قلب لك ..

.. هاتف يرن عندما تحتاجه . وباب تطرق وأنت في قمة أحزانك ، وود يجتاحك وأنت تحتاجه ..

حب في الله ..

غيمة شفافة عند الأفق.. وضوء ساطع في نهاية النفق .. وشمعة، وعود ثقاب ، وخريطة - ودواء يحمي من الأرق ..

حب في الله ..

صوت: مرة صارخ في البرية . ومرة هامس في أذنيك همسة ندية ، ومرة يتجلى في قلق هائل عليك ، ومرة يتمثل في محض هدية ..

حب في الله .. فكر مضيء يجتاح الحواجز- يلغي الحدود- وتكتشف فجأة أن الذي أضاء رأسك يمكن أن يضيء رؤوس الآخرين- يمكن أن يضيء اللحظات المشتركة..

حب في الله ..

لا ميزان متعادل . ولا مكاييل للتوازن . ولا مقايضة في المشاعر.. لا حاجة هناك لأن يكون عطاؤك موازياً لأخذك .. ولا إحساس بالتنازل .. ولا بذل التنازل ..

.. حب في الله .. لا قيود - لا شروط .. ولا حدود ..

لا قيود جمركية على ما يخرج منك من عطاء .. ولا شروط ضريبية على ما يدخل إليك من مقابل ، ولا حدود تقف أمامها بانتظار التأشيرة ..

حب في الله : صفاء مجاني يتدفق منك بلا حساب، لا تريد شيئاً بالمقابل، ولا تطمح لشيء بالمقابل - لا تفكر متى يرد جميلك لأنك أصلاً لا تعتبر أنك قد أديت جميلاً أو فضلاً ..

حب في الله .. إلغاء للمسافات البعيدة، وتلاق بين القطارات في محطات جديدة ..

نوارس تأتي من بعيد، وأيادٍ تلوح باللقاء ...، وجه أليف يطرق الباب بعد غياب ..

.. وعند الوداع، دمعة حزينة، ونظرة حنونة، وابتسامة مكلومة ..

.. واتفاق على لقاء بعيد قريب .. حتى لو كان بعد آلاف السنين .

حب في الله .. هذا هو ! .

* * *

بقدر ما يبدو الأمر خيالياً - فإنه في حقيقته شديد الواقعية، ويكفي كلاً منا تجربة واحدة فقط

ليخترق بها جدار العلاقات البليدة المتكلسة، ويمد بنفسه وكونه نحو ذلك البعد الآخر حيث يتجلى فيه زمن آخر .. وحب آخر .. وحلاوة أخرى ..

.. وعندما سجدت في تلك الليلة اللامنسية من ذلك الرمضان اللامنسي، وكانت الدموع غمامة تنقلني إلى الملأ الأعلى، وكان قلبي مذبوحاً كحمامة تطوف قرب سدرة المنتهى ..، وطلبت منه - وأنا في ذلك القرب القريب، أن يديم هذا الخشوع، .. وأن يكرره .. ألا تكون مرة واحدة في العمر ..

.. ولم يخطر ببالي - الذي كان مشتتاً مثل حقل زهور برية في غمرة عاصفة - أن الاستجابة للدعاء ستكون على شكل رابطة بشخص لا رابط بيني وبينه - على الإطلاق

.. ولأنه لا رابط - لا سبب - لا قرابة ولا مشابهة ولا مناسبة ولا مصاهرة - فقد تكونت أقوى رابطة، تلك هي التي في الله، ولو كان هناك أي نوع من أنواع الروابط الأخرى التي تربط بين عموم البشر مثل المهنة والقرابة والجيرة أو حتى المصادفة المحضة التي تتحول إلى رابطة عشرة قوية، لما كان رابطة الله بنفس الوضوح والإطلاق ..

.. لكنه ، جل وعلا، شاء أن لا رابطة هناك من تلك الروابط العادية القابلة للذوبان -

من أجل أن تكون رابطته هي المتفردة .. الوحيدة في موضوع قد يمكنه أن يتحدى عواصف النسيان ومناجله التي لا ترحم..

لا روابط ابداً، من تلك الروابط، بيني وبينك .

* * *

نشّئْتَ أنت في بيت عسكري ، ووالدك سيادة اللواء المتسلط، يفرض قوانينه في البيت كما في الوحدة العسكرية التي يتسيد عليها..

ونشّئْتُ أنا في بيت متعدد السلطات، والدي مشلول حيده المرض مبكراً وجعله نصف مقعد..

.. نشئتَ أنت مجرد طفل بين عدة أطفال حتى لو كان متميزاً فإن تميزه كان سيطمس بين الباقين، ونشّئتُ أنا ذكراً واحداً نصف مدلل ونصف مفسود ..

.. وكبرتَ أنت وهوايتك اصطياد... تعرف ماذا، وهوايتي أنا ملاحقة الكلمات في حقول الأدب والشعر ..

.. وكبرتَ أنت وأصبحت خيالاً محترفاً - وأنا أذكر بالجهد أني ركبت مرة حماراً !

.. كبرتُ أنا ولا أذكر أني بتُّ مرة خارج البيت، وأنت بقيت مرة في الجبهة سبعة وستين يوماً دون أن تعود للمنزل ..

.. ونزفت شبابك أنت بين السواتر والخنادق وفي جوف الدبابات ،

.. وأنا نسجته في برج عاجي مبني من آلاف الكتب التي التهمتها كما تلتهم دودة فريستها..

.. وحزت أنت على كتب شكر وتقدير لأنك قتلت مجموعة من القناصة بعد حسابات دقيقة للمدفعية الثقيلة، وأنا بالجهد أعرف استعمال مسدس خفيف، ومن دون تصويب !.

.. أنت كنت تحب المواويل الريفية الحزينة، بينما كانت طقوس كتاباتي الأولى تشمل تشايكوفسكي وبرامز وبيتهوفن !!

.. ولو استرسلت في ذكر الاختلافات لنفد الوقت قبل أن نجد لها نهاية .

ولو قيل لنا إننا سنكون أصدقاء - قبل أن نكون - لما صدقنا ..

ولو أنفق أحدهم مافي الأرض جميعاً ليؤلف بين قلبينا - لما حدث ذلك ..

لكن الله ألف ..

الحب.. في الله ، هذا هو !!.

* * *

.. مرعوباً كنت مما يدور .

لم تكن تفهم هذا الذي يحدث، وكان إبليس قد أوحى لك بسيناريو إرهابي أقوم فيه أنا بدور العميل السري الذي يريد تجنيدك لحساب مجموعة إرهابية غامضة ..

وكان هذا هو آخر ماتحتاج إليه ..في وضعك الوظيفي..

.. وكنت مستعداً لأن تفعل أي شيء من أجل منعي من أداء دوري في السيناريو المرعب المزعوم..

.. وفي مطعم "الشموع"، أشعلت شمعة ..

كنت تتناول غداءك هناك مع صديقك حسين - وكان لابد أن تكاشفه بهمومك وهواجسك ووساوسك - فبعد كل شيء ، كان هو الصديق المتدين الوحيد الذي حظيت به من بين عشرات أصدقاء السوء وأراذل الناس الذي ابتليت بهم - من ضمن جملة ابتلاءات أخرى..

ولم أكن أعرف حسين . ولم يكن يعرفني ..

لكنه - في لحظه خارقة - تجاوز المألوف والمعتاد والتقليدي، وقال لك عن ذلك الشيء الآخر الذي لم تكن حتى قد سمعت به .. ولو مجرد سماع..

قال لك شيئاً خارقاً عن الحب في الله،.. والأخوة في الله..، وربما عن حلاوة الإيمان ..

قال لك إن البعض يفعلون أكثر مما أفعل أنا.. بدافع تلك المحبة السماوية التي لا مصلحة فيها ولانوازع .. ولادوافع أرضية ..

لم تقتنع أنت بما يقول . كان أبعد مما أنت فيه، في خضم ذلك السيناريو الإرهابي المروع الذي كنت تعيش فيه ..

لم تقتنع، لكن في مطعم الشموع، أشعلت شمعة ..

وأنا واثق أنها أضاءت لك الطريق ..

.. ولو بعد حين ..

* * *

وفي عز الأزمة، جاءني المدد الإلهي ..

بالضبط في لحظة صعبة من لحظاتها - لا أقول

إنها لحظة يأس، لكنها لحظة تزاحمت فيها الأشياء، وتعقدت فيها الانفعالات، ووصلت إلى تلك الحافة الحرجة التي توهمت فيها أن لا أمل، وأنني أضرب في الهواء، وأكتب ربما للكل باستثنائك - وكان ذلك مؤلماً جداً - رغم أن فيه حلاوة الإيمان ..

في تلك اللحظة، جاءتني مكافأة من فوق ..

جاءني المدد ..

فجأة بدا أن كلماتي صارت تدق على وتر ما.. فجأة صارت كلماتي تحفر في الصخر.. فجأة صار الصخر يتفجر منه الماء..

كنت دوماً أؤمن بأن الكلمة يمكن لها أن تغير.. يمكن لها أن تفعل المعجزات..كان ذلك مصداقاً لما آمنت به دوماً..

* * *

بدا الأمر لطيفاً وأنيقاً على الإنترنت، في تلك الرسالة التي كتبتها أنت وأرسلتها أنا، إلى موقع حجبته الرقابة الأمنية التي نعيش في ظلها.. وكان اسمك الحقيقي مذيلاً الرسالة ..مرفقاً بـ "..من بغداد" ..

وتبادل العراقيون في الخارج الرسالة، ووصلت بالمصادفة إلى واحد من معارفك القدامى كان

يعيش في كندا - وربط الاسم والعمر الذي ورد في ثنايا الحكاية باسمك وعمرك، وأرسل بدوره إلى واحد من أصدقائكما المشتركين يسأله: (أهو هو؟..)

(و كنت هو ..، كما لو بمعجزة، كنت هو ..يا صديقي يا غريب المجرة.)

كان ذلك لائقاً ومناسباً على الإنترنت.

حكاية طريفة للهداية التي بدأت بألم الأسنان عند الماء البارد، والتي قادتك إلى "طبيب أسنان" كرس وقته لدعوتك..

لكن الأمر لم يكن في الواقع بتلك البساطة.. كان مليئاً بالزلال والعواصف التي لم يعرف بها أحد..

وعندما جاء المدد، وعرفت أن أحرفي قد فعلت شيئاً ما، استطعت أن أكتب بتركيز أكبر..

* * *

وأنت توشك على الرحيل، وتضع جواز سفرك في أكثر الأمكنة أماناً، وتبدأ بتصفية ممتلكاتك وأغراضك .. استعداداً لرحيل لا ريب في أنه سيكون بعيداً ..

الملم أنا ذاكرتي وذكرياتي، أكورها وأرميها بوجه النسيان الآتي لا محالة - ، أطلقها صيحة بوجه الليل والغربة والقارات المجهولة في المجرات المتباعدة ..، أصفعها بوجه أؤلئك الذين يعرفون والذين لا يعرفون، والذين يفهمون والذين لا يفهمون، والذين يصدقون والذين لا يصدقون ..

الملم أوراقي - تلك المسودات التي نزفتها من أجل أن يبيض وجهي يوماً ما - ألملمها الآن واحدة بعد الأخرى، وأتأمل فيها كما يتأمل أب مفجوع صور أولاده وهم يبتسمون، وقد ماتوا جميعاً تحت القصف ..

ألملمها، ومع كل ورقة تنطلق ذاكرتي كتنين خرافي ينفث الرياح والعواصف والحنين ..

وأتذكر..

هنا كتبت دون أمل.. وهنا صددت أنت وبدا الأمر بلا أمل.

هنا لمت نفسي أني أكتب لشخص عابث لاهي لا مشاكل حقيقية له، لكني كتبت لك أيضاًا- عن أولئك الذين يحتاجونه دوماً، ويكون هو دوماً هناك..

.. هناك سكنني كابوس جهنمي - وقتلت نفسي لكي أحوله إلى أبجدية وأسطره على الأوراق..

وهنا كنت سادياً دونما تهذيب، استخدمت سياط اللغة غير التقليدية لأجلد مستقبلك وماضيك وحاضرك دفعة واحدة..

.. وهنا كتبت ولم أجرؤ على إعطائك.. وهنا كتبت وتجرأت..

.. وهنا فشلت وأخفقت.. وهنا نجحت.. وحلقت..

وهنا قلت لي - دون حتى أن أسألك - فجأة ودون مقدمات، إنك تأثرت بما كتبت..

(كنا نأكل كل في مطعم "أم يعرب"(١)، أتذكر؟. يوم الحاسبة التي أعرتك إياها موهماً إياك أنها مستأجرة وإنك ستدفع عنها نقوداً.. قلت لي فجأة - إنك تأثرت برسالتي الأخيرة.. وإنك قد قررت أن تذهب لصلاة الجمعة ابتداءً من الأسبوع القادم..

كنت قد كتبت عن الجمعة الكئيبة.. عن صلاة الجمعة والجماعة..

ولم تعد أيام الجمع كئيبة من يومها.. يا صديق)..

---

(١) أم يعرب: مطعم كان يعد من أهم علامات شارع الربيع في حي الجامعة..الذي نكب تماماً بعد الاحتلال..

وهنا تماديت في نكءِ جروحك. وهنا أرهقت أعصابي في إرهاق أعصابك.. وهنا أجهشت سراً، وهنا جعلتك تجهش..

وهنا هجرت وسادتي أنا، وهنا بللت أنت بالدموع وسادتك..

هنا لم تهتم. هنا ثرت. هنا جادلت، وهنا ببساطة - رفعت رايتك البيضاء، .. واستسلمت..

تمر علي الأوراق كما تمر بالمحتضر محطات حياته - لكن أشعر بالود تجاه كل ما كان، لا شعوراً بالهدر ولا إحساساً بالندم - لقد بذلت أفضل ما أستطيع في اللحظة التي بذلت فيها..

وعندما ستطوي أنت كل شيء وتحزم حقائبك وتحمل أحلامك وتمضي بجواز سفرك إلى بطن الحوت، سألم أنا أوراقي وأحتفظ بها إلى أن يأتي وقتها وأرميها في محرقة المطابع، وأتركها للرياح لتنثر رمادها في العاصفة - وأعرف أن الحقول ستحتضنها، وأن بذورها ستنمو في رحم الأرض ثم إنها -و لو بعد حين- ستزدهر، وستقف لتبشر بذلك الزمن الآخر، والأسلوب الآخر، والفهم الآخر....

* * *

قال عمر بن الخطاب مرة، جملة هائلة، تنضح صدقاً ومرارةً وتجربةً..

قال: "إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه، فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك".

صحيح، لو فكرت في الأمر - بالطريقة نفسها التي يكون الود فيها - في الله - والتي بالتأكيد فكر فيها عمر..

لوجدت: قلما يصيب ذلك..

عندما يكون كل منا، غريباً في قارة مجهولة من كوكب مهجور في مجرة نائية، تركض بتباعد عن كل المجرات الأخرى، قلما يصيب ذلك.

عندما يكون كل منا، قد قفل خوذته المفرغة من الهواء على رأسه، وأغلق الشبابيك العازلة للصوت وللآخرين على نفسه، وأبحر بعيداً في ظلمات عزلته ودياجير وحدته.. - فقلما يصيب ذلك...

عندما يكون باب قلبك موصداً والدخول إليه يحتاج إلى شفرة سرية ومحاولة اقتحامه مغامرة انتحارية... فقلما يصيب ذلك..

.. وعندما يعصف بك الإعصار، ويحاصرك، ويعصرك.. فقلما يصيب ذلك.. .

.. وعندما تشتد العاصفة، وأنت وحدك في العراء، تبحث عن جذع شجرة لتتشبث به، وتعض به على أسنانك.. فقلما يصيب ذلك..

وفي صحراء حياتك، عندما يكون الظل سراباً، والماء أسطورة، والحر سوطاً يهوي على ظهرك، ستبحث عن أحد، وستتذكر.. فقلما يصيب ذلك..

.. وعندما تشتد الأزمة، وتكثر السكاكين، وتزداد - في الظهر الطعنات -، سترى في الوجوه الناصحة بعض الشماتة، وستكشف الثغور الباسمة عن بعض الأنياب اللامعة، ستؤكد مع نفسك.. قلما يصيب ذلك..

.. وعندما يصير بيتك سجناً انفرادياً، وتبحث عنهم وعن أصواتهم، عن وعودهم، وعن وقفاتهم، فلا تجد غير القضبان حولك..

.. وعندما يعم الصمت - ساخراً من كل الأصوات التي سبق وسمعتها - فإذا بالباب لا يدق، والهاتف لا يرن.. وتتمنى لو أنهم..

لكن لا، قلما يصيب ذلك..

وستتأكد من أنك كنت دوماً غريباً في المجرة، ربما لم تكن واعياً بذلك لأنك كنت محاطاً دوماً بزحام من الآخرين وأصواتهم وضجيجهم، لكن

عندما تحق الحقيقة، ويدق الناقور، ستعرف حقاً هويتك وموقعك... مجرد غريب آخر في مجرة أخرى..

.. ولذلك، عندما ترى وداً من أحد.. تمسك بذلك، فقلما يصيب ذلك..

ولقد رأينا..

.. ولقد تماسكنا..

* * *

ولقد جعل لنا الرحمن وداً ..

.. كان ذلك استثنائياً جداً.. نادراً جداً، وخارقاً جداً..

نعم، لقد جعل لنا الرحمن، من لدنه، وداً.. ووجدنا رغم البعد قرباً.. ولمحنا - من بعيد - في الظلمة ضوءاً..، وتلمسنا في الدهليز درباً..

وفي زمهرير البرد وجدنا دفئاً..، وفي المجرة، رغم سعتها، وجدنا مأوى..

وفي الله - الذي جعل لنا وداً - وجدنا حباً..

.. أمراً معجزاً جداً..

* * *

صديقي، يا غريب المجرة..

لأننا لسنا آلات جامدة - فإننا للأسف لا نملك أزراراً نستطيع أن نتحكم عبرها بمشاعرنا وقلقنا ومخاوفنا ..

لذلك فإن هذا الود الذي جعله الرحمن لنا، وهذا الحب في الله، لا يلغي بالضرورة مشاعر القلق والجزع التي تحدث عند الآخرين..

.. وكما يكون الود في الله أكبر والحب في الله أعمق من الود والحب العاديين بين البشر.. كذلك يكون القلق في الله أكثر إيلاماً وجزعاً..

وأعترف هنا بما هو ليس سراً..

وأنت تكاد ترحل إلى مجرة أخرى، أعترف بأن قلقي يتجاوز مشاعر القلق العادية التي تؤرق البشر ..

البشر، يا صديق، الذين تربطهم تلك الروابط القابلة للذوبان - مثل قرابة النسب والمصاهرة والمعاشرة - يقلقون قلقاً يليق بالروابط فيما بينهم - إنهم يقلقون - لو قلقوا أصلاً - على سكنك ومرتبك وضمانك الاجتماعي وأخبار ارتفاع ضغطك وهبوط مستوى السكر في دمك..

إنهم يقلقون - على دنياك ..

وأقلق أنا على آخرتك - وأيضاً على دنياك التي هي مزرعة آخرتك، أقلق على دنياك بقدر تعلق الأمر بآخرتك..

.. والفرق بين قلقي وقلقهم [لو قلقوا!] ليس بالنوع فقط - ولكن بالحجم أيضاً..

أقلق قلقاً هائلاً، لا بحجم التفاصيل اليومية الصغيرة - ولكن بحجم القضايا الكبرى المصيرية..

* * *

(مرة قلت لي، وكان القلق على وجهي مظاهرة تنديد واستنكار، وكنت أنت مدعواً لحفلة عرس، تعرف من وتعرف أين، دعوة من ماض يريد ألا يموت، وكنت تريد طمأنتي، فقلت لي: اطمئن! ضع في بطنك بطيخة صيفي".

يومها لم أقل لك - لأنني لم أرد إرعابك - إن البطيخة الباردة لن تكفي لطمأنتي، وإن كل محاصيل الصيف والشتاء لن تكفي لطمأنتي..

لم تكن "قلة ثقة"..كما ادعيت أنت يومها واتهمتني..

لكني كنت أتصرف مثل أم موسوسة ترسل ابنها الوحيد إلى المدرسة للمرة الأولى - ..

أكلت البطيخة الصيفي يومها - وذهب الصيف وجاء الشتاء ..

وفي كل مرة كان القلق يستبد بي، كان الله يرسل لي إشارة طمأنينة، أتوازن بها على الدرب الصعب..)

* * *

لم أخبرك بهذه القصة من قبل - لكني أشرفت على إخبارك أكثر من مرة - وفي كل مرة كنت أتراجع وأحجم وتخونني شجاعتي..

والآن أنا أخبرك، فأنا أجهل تماماً ردة فعلك تجاه ما سأقوله..، ورغم أن الأمر حدث بشكل عفوي - إلا أني أدرك أني ربما قد مضيت أكثر مما ينبغي هذه المرة (أي إني تماديت ولم تكن زوجتي هناك لتوقفني)، المهم أني مضيت في ما اعتبرته أنا - انتهاكاً لخصوصياتك..

(كنت أحياناً تبدو نائياً شارداً في المجرة أكثر من المعتاد - بعيداً كل البعد ، رغم كل الجسور التي استطعت أن أبنيها - ورغم كل الأقفال التي استطعت أن أفك شفرتها..

.. وكان قيام الليل ..

.. وكان لك - في الدعاء - حصة.

قلت له وأنا أناجيه في ذلك الثلث القريب البعيد، وأنا هناك - في جوف الليل وقلب الليل وعتمة الليل - في تلك البقعة المضيئة التي يسمونها قيام الليل..

قلت له: أرني آية.. أرني إشارة - أرني علامة تقول لي إن خطواتي صحيحة، وإني سددت وقاربت، وإن تلك الجهود كلها لا تذهب هباءً إلى الهواء..

وإن الأمر - أمر التزامك - جدي. الأمر جدي. الأمر جدي.

(لا تغضب الآن مني!. لم يكن شكاً . كانت وسوسة. وبيني وبينه عز وجل لا حواجز - كان لا بد أن أسأله ..)

طلبت منه علامة..!

وعندما أذن الفجر، وكان لا يزال هناك بعض الوقت لإقامة الصلاة - جاء في بالي أن أشاهد برنامجاً كنت أتابعه ولم يكن وقت عيادتي يسمح لي بمتابعته وكنت قد سجلته لي أنت على شريط فيديو. - لم أكن أدري أن العلامة ستأتي بهذه السرعة، وفي هذا الشريط بالذات..

مستلقياً كنت عندما انتهى البرنامج، أذكر

بالضبط العنوان والموضوع - ظل الشريط يدور.. لم أنهض لأغلقه..

وفجأة وقع ما لم يكن في بالي ..

فبعد البرنامج، ظهر شريط فيديو عائلي مصور كنت قد مسحته أنت عندما سجلت الحلقة، وربما سهوت عن إكمال مسحه..

لكنني متأكد أنك لم تنتبه لهذه النقطة عندما أعطيتني الشريط، لا لإخفائه عني بالذات، ولكنه شريط عائلي خاص - لا ينبغي أن يراه أحد إلا إذا كان ضمن العائلة..

كانت حفلة عيد ميلاد.. أو ربما نجاح؟ لست متأكداً. كما تعلم البشر يخترعون مناسبات أحياناً ليرقصوا ويعربدوا، إنهم مبدعون دوماً في البعد عن الله..

.. وكان هناك - ما تعلم أنت أنه كان موجوداً ..من معاصي ، من مظاهر تلك الحياة الفارغة..

أعترف: للحظات شعرت أن عليَّ أن أكف عن المشاهدة. وقف ضميري هناك يلوح بلوم وتهديد: إنها أمانة ويجب أن توقف الشريط.

تمثل ضميري بشكل طفل مستقيم، لا يعرف الحلول الوسط. مثل ابني عندما يقرعني على تجاوز

إشارات المرور الحمراء - حتى عندما تكون خضراء!.

وأعترف أيضاً: لست مستقيماً كابني!. سرعان ما أقنعت نفسي بحل وسط: لم أكن لأضيع علامة طلبتها قبل دقائق. قررت أنني لا أريد أن أشاهد سوى ما يجب أن أشاهده..

وبين تسارع اللقطات كنت أبحث عن شيء واحد، كان مرتدياً ذلك "القميص" الأبيض الذي أعرفه جيداً.

.. ولم تكن الكاميرا لتقف أمامه، - كان أمامها أشياء أخرى كثيرة لتركز عليها - وظللت أبحث وأبحث.. عن شيء.. عن العلامة التي كان لا بد لي أن أراها ..

.. ومن أقصى الغرفة تحركت أنت، واخترت ركنا بعيداً - قرب الممر - لتقف وتنفخ دخان غيظك ورفضك..

لم تقترب الكاميرا كثيراً.. لكنها لم تعجز عن اقتناص تلك النظرة التي كنت كل ما أريد عندما سجدت..

لم تعجز الكاميرا عن اقتناص ذلك التمعر الذي ملأ وجهك..

فجأة، صارت الكاميرا مقياساً للأدرينالين الغاضب في دمك، في أعماقك في أعالي روحك..

هناك، في الركن البعيد قرب الممر في بيت خالتك، رأيتك يا غريب المجرة وأنت أغرب ما يكون وأبعد ما يكون.. وأنأى ما يكون..

.. هناك، يا غريب المجرة.. كان واضحاً على وجهك أنك مدرك لأبعاد تلك الغربة.. مقتنع بلا انتمائك لكل ما هو حولك.. كان واضحاً جداً أنك لم تعد منهم وإن كنت تشغل حيزاً مشتركاً معهم..

كان واضحاً أنك انسلخت عنهم..

وأنك تروم البحث عن مجرة أخرى.. كان واضحاً جداً أنك قد غادرت تلك الحياة بأسرها - بكل الفراغ الذي فيها..

.. ومن بعيد سطع ضوء في المجرة..

.. ولم يهمني حقاً ما حدث بعدها..)

.. ولم تكن الطمأنينة تأتي بهذه السهولة دوماً، أحياناً كنت أحتاج إلى شيء صريح وواضح يصدر منك، فكنت أتحايل وألف وأدور من أجل أن أحصل على شيء منك..

وكنت تعرف ذلك، ولكنك دوماً كنت تلهو بي كما

يلهو قط عابث بفأر مسكين، قبل أن يلتهمه..، وتتصنعَ عدم معرفة ما أريد ..

ثم تسرب لي - بطريقة تبدو أنها طبيعية تماماً - ما أريد أن أعرفه، ما يمكنه أن يطمئنني.. مثل تعليقاً على الوقت الفاصل بين الآذان والإقامة في صلاة الفجر في جامعكم، أو على الجزء الذي وصلته في قراءتك اليومية للقرآن.. أو.. أو.. أو أي شيء آخر تقوله بطريقة روتينية تماماً..

لكن روحي، عندما تنهي جملتك - تكون قد حلَّقت عالياً..

بطريقة غير روتينية بتاتاً..

* * *

(.. وأعتقد أن قلقي مبرر.

يمكن طبعاً أن يأتي من يتشدق ويتكرم ويتصدق علي بكلام أتقنه أكثر مما يفعل هو، ويقول لي خليها على الله، وأنت عملت الذي عليك،.. وأنك لا تهدي من أحببت.. إلخ - كلام ظاهره فيه الصدق باطنه فيه التخدير، وهدفه قتل قلقي بزعم أنه يتناقض مع طمأنينة ودعة وهدوء وراحة الإيمان..

لكني أظن أن قلقي مبرر..

ويستطيع الناس أن يقلقوا - إذا شاؤوا -

مطمئنين أن قلقهم شرعي! ومستند على أدلة، ما داموا يقلقون على أموراً أخروية أكثر منها دنيوية.

(سألوا يعقوب، وقد ابيضت عيناه من كثرة البكاء والحزن على فراق يوسف، كيف تحزن لهذا المدى.. وأنت رجل مؤمن ومتوكل على الله سبحانه وتعالى..

قال: أبكي حزناً وخوفاً أن ينقطع يوسف عن الصلاة، فلا ألقاه في الجنة يوم القيامة..)..

وأقول لك: ليس الفراق بمعنى ألا أراك - هو الذي يحزنني.. لكنه الخوف والقلق أن تنقطع عن الصلاة.. عن صلتك بإله هذا الكون- ومن ثمّ صلتك بنفسك الحقيقية.. أخشى لا أن تنقطع عن الصلاة بمعنى حركاتها فقط - بالمعنى الذي يحرص الناس على فعله فقط لإسقاط الفريضة - بل بمعنى رؤية الحياة الشاملة التي تمثل الصلة بالله عز وجل..

أخاف أن تقطع تلك الصلة، فلا أراك بعدها أبداً..

.. إنه كحزن يعقوب على يوسف، لن تبيض عيناي، لكني سأسود الأوراق واحدة بعد أخرى - من أجل هذا القلق..

.. وأقول لك: تستطيع أن تذهب - مرة واحدة - ولا تلتفت إلى الوراء، ولا يأتي خبر، ولا يأتي مخبر.. ولا يدق الهاتف ولا تطرق الباب، ولا تمر في إلكترونات بريدي رسالة منك..

أقول لك: في ذلك كله لا توجد مشكلة - لو كنت ضامناً لي، شيئاً واحداً فقط.. فقط..

إنك ستظل متمسكاً بتلك العروة الوثقى..

إنك ستظل على ذلك العهد بينك وبينه..

وإن الجمرة في أعماقك ستظل متقدة، جمرة لا إله إلا الله محمد رسول الله..

إنك ستظل تملك تلك الصلة..

* * *

(صراع بين عقلي وقلبي.. لن أخفيك حيثياته.. مرة قلبي في موضع الدفاع. ومرة عقلي في موضع الادعاء ..

مرة قلبي يقول، مستحيل!.. إن من ذاق قلبه الذي ذقته لا يمكن له أن ينسحب.. ويهجر..

ولكن عقلي يهمس: لا شيء مستحيل على هذه العضلة التي أشتق اسمها من التقلب ..

مرة عقلي يقول: سيذهب يستقر هناك، وينشأ

عائلة - ولا يعقل أن يغدر ويهجر بعدما فعل الله كل ما كان يريده - وكان يبدو أن الأمر أقرب إلى المعجزة عندما تتحقق..

لكن قلبي يرتجف بقهر، ويقول: المغريات كثيرة، والإنسان سمي كذلك لأنه كثير النسيان..

.. ويظل الجدال بين عقلي وقلبي محتدماً وهما يتبادلان المواقع ويتبارزان بالأدلة - (تبدو كلمة مبارزة شديدة النبل والتهذيب هنا - والحق أن الأمر أقرب للمصارعة الحرة!)..

لكنهما معاً - عقلي وقلبي - يكفان عن الجدال وعن المصارعة - ويصمتان كأن على رأسيهما الطير.. أمام هذه الواقعة التي حكيتها لي مؤخراً..

بل التي أنطقك إياها الله - جل جلاله - وكان يمكن أن تظل سراً من الأسرار الدفينة في قلبك..

* * *

(.. تكات الساعة والغرفة الثرية .. الجسد البض.. والخبرة الغنية..

.. والأفعى تفح، والأنثى بخبث ذكية..

.. والزوج دوماً مسافر. وفرق السن خطر. وبعض المخاطر شهية..

.. وتكات الساعة.

والحكاية القديمة.

والفراش بارد، والشهوات لظية..

والأفعى تفح، وإبليس ليس بعيداً. وكيف يبعد عن صيد وعن ضحية؟.

.. وإبليس يوحي لها بالخواطر.. وفرق السن خطر. وبعض المخاطر..

(فعلتها قبلها ربما مع عامل الكهرباء وعامل الماء ومع ساعي البريد..

أي شيء لا يؤدي إلى عواقب.. أي شيء عابر)

.. واليوم يوحي لها بصيد جديد.. صيد نظيف هذه المرة..

(أتذكرين ذلك الشاب الأعزب الوسيم؟؟)

. كانت وزوجها قد استاجرا بيتك لفترة من الزمن - وبينهما فجوة حوالي ثلاثين سنة.. والزوج مسافر دوماً والحكاية معروفة -

وخطر على بالها الشاب الأعزب الوحيد - صديقي غريب المجرة -

.. والأفعى تفح. وتكات الساعة. وسماعة الهاتف..

خطر لها أن فحيح الأفعى مسموع في أذنيك ـ في الصمت المطبق في بيتك الموحش ـ بيت الأعزب الغامض الوسيم..

خطر لها أن إبليس يتصدر المكان نفسه - في ذلك الركن عند تلك الزاوية..

وأنه مثلما يوحي لها، يوحي إليك..

خطر لها كل شيء ـ إلا أنك سترفض عرضها..

من يرفض امراة ـ في عز ثلاثيناتها.. والجسد البض .. والخبرة الغنية؟..

.. وفحيح الأفعى. وتكات الساعة.

... وسماعة الهاتف.

اتصلت.

أي كلام في هذا العالم يمكن أن يقال ويفسر ألف تفسير، حسب النبرة والصوت وطريقة الكلام..

قالت، "إنها تريد أن تستشيرك في موضوع مهم وخاص.."

" لا، غير ممكن في الهاتف.."

" لا بد أن آتيك في البيت لنتحدث"

من المفاجئة أخذت أولاً. ثم من الخجل ثانياً. ثم من الارتباك ثالثاً" ...

" سآتيك غداً إذن. سأتصل قبل أن آتي..
لأتأكد.!" .

.. الماضي ورؤاه وتجاربه أمامك.

لا مجال لحسن الظن. لا مجال للتصور أن هناك شيئاً مهماً وخاصاً تريد أن تستشيرك فيه حقاً..

لكن فحيح الأفعى، وتكات الساعة... الزوج المسافر، وفرق العمر .. والحكاية القديمة..

لا مجال لحسن الظن: النبرة نبرة الغواية... شيء من الفحيح يكاد يكون مسموعاً عبر أسلاك الهاتف..

... والفحيح مسموع أيضاً في بيتك، في زوايا الغرفة وأركانها الموحشة. هنا الأفعى تتلوى... وهنا اللهيب لم يخمد..

.. والأعزب الوحيد، غريب في المجرة...

وغريب المجرة يتقلب في فراشه... وأشباح الماضي وآثامه وآلامه..

الأفعى تتلوى قرب السرير..

.. وإبليس يفرك يديه جذلاً بالصيد الجديد..

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾..

والأبواب مغلقة. وقد تكون مغلقة أكثر عندما تأتي..

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾..

إنها متزوجة: لا حدود ـ ولا حواجز تجبر على التوقف، على العكس، الرغبة الفوارة.. والخبرة الجبارة..

.. إبليس يفرك بيديه جذلاً..

لكنها متزوجة. (إنه الرجم هذه المرة..)

..﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾..

.. عندما دق الهاتف ـ غداً ـ كنت حاسماً معها..

.. لم يخطر ذلك في بالها ـ ولا في بال إبليس..

توقعا أي شيء، إلا أن يصمد ذلك الأعزب الوسيم، صديقي غريب المجرة..

ومن بعيد، من بعيد جداً، سطع ضوء في المجرة..)

* * *

قلت لي، إنك لم تندم وقتها إلا على شيء واحد.. إنك لم تردها فوراً ومنذ المكالمة الأولى..

.. وعندما كنت تروي لي الحكاية، لم تنتبه إلى التحولات التي كنت أمر بها.، لقد كانت أدوار استحالة أمر بها من خلال كلماتك.

مرة بان الغضب على وجهي، وتدفق الدم في عروقي..

.. ومرة كدت أن أشهق، وأنا أتخيلك وتلك الجدران الصماء تحاصرك وفحيح الأفعى يكاد يصم أذنيك..

.. ومرة - عندما رأيتك ترفض بتصميم - صرت مجموعة شهب متراكضة تنثر الضياء في هذا الكون المظلم، صرت كوكباً سياراً متمرداً على مساره، يجوب الأكوان والمجرات مبشراً بالنور القادم..

لم يكن الأمر مسألة "معصية" صمدت أمامها..

أبداً..

لقد كان الأمر أكبر من ذلك بكثير-كان حياة جديدة بكل ما يعني ذلك من كلمة، تغلبت على حياة سابقة..

إذن ثمة أمل في تغيير هذا العالم المسكون باليأس.. إذن المعجزات تتحقق في عصرنا الخامد البائس..

وفي ذلك الامتحان الذي قد يسقط فيه العباد والزهاد، تقدمت أنت ـ أنت يا ذلك الماضي المليء بالمعاصي، أنت المحاط بعزوبيتك وبوحدتك ـ تقدمت أنت لتنجح..

..وأحسست مرة أخرى بذلك الشعور الذي انتابني وأنا هناك في الجامع في تلك الليلة المشهودة من ذلك الرمضان قبل الفائت، عندما لم أكن متأكداً إذا ما كنت قد أصبحت مركزاً للكون، أو أن الكون هو الذي تكثف وتركز في ..

بفارق أني في المرة الأولى مررت بهذا الشعور بشكل فردي..

.. وفي المرة الثانية، اجتاحني الشعور عبر انفتاحي على الآخرين، تواصلي معهم..

عبر الحب في الله، الذي هو أقصر مسافة بين مجرتين متباعدتين..)

.. عندما أكملت رواية هذه التجربة، كنا قد وصلنا منزلك، عائدين من مشوار يخصك (كنا قد أوصلنا الحاسوب لحسين بعد أن أصلحته له..).

هبطت أنت من السيارة أمام باب المنزل، واستدرت قبل أن تدخل، واستدركت كمن نسي أن يقول شيئاً. قلت لي: شكراً..

.. وقلت لك: لا، أنا الذي يجب أن أشكرك..

* * *

(.. وأعترف أيضاً أنه إذا كان قلقي يخص القضايا الكبرى المصيرية في دنياك وآخرتك، فإن افتقادي لك سوف يخص أصغر التفاصيل الدنيوية التي يمكن تخيلها..

سوف أفتقد انشغالي بهمومك ومروري الدائم والمتواصل عليك، وسؤالي عنك، جزء من وقتي الذي كرسته لقضية تغييرك طيلة السنة الماضية سيصبح فارغاً جداً، وسيكون ذلك مؤلماً جداً مثل عملية نزع جلد محروق..

وسوف أفتقد ذلك الاسترسال الطبيعي الصادق في الحديث دونما تكلف أو عناء - لا نظريات كبيرة ولا شعارات عظيمة ولا خطط لتغيير العالم - فقط حديث العاديين الذين يمكن أن يكون أكثر إثارة - بصدقه- من استكشاف نظرية مفقودة لأينشتاين..

سوف أفتقد مشاكساتي لك. وسوف أفتقد صبرك علي.

وسوف أفتقد مناكفاتك ومزاحك الجاد مع أندلة المطاعم التي زرناها.. والأصحاب لن أنسى ذلك النادل المذعور في المطعم على النهر في العطيفية، وهو يبدو أنه في يومه الأول في العمل، وأنت

تشاكسه جيئة وذهاباً، وهو لا يدري إن كنت جاداً أو مازحاً، ولا يكاد يصدق أن كل ذلك يحدث له في يومه الأول - وأنا أتوسل إليك أن تدعه وشأنه..

.. وسوف أفتقدك مع كل عارض يحدث في الكمبيوتر (أو الإنترنت!)..(١)

وسوف أذكر دوماً وأنا نفسي أكاد لا أصدق نفسي أنني كنت أنا الذي أقنعتك - بل تحايلت عليك - لشراء كمبيوتر والتدرب عليه من أجل إشغال وقتك، وها أنت ترحل وقد أصبحت خبيراً بشؤونه إلى درجة أن أصحاب مكاتب الحاسبات يستشيرونك..

.. وسوف أفتقد الذهاب إلى الصلاة كل جمعة. وقد يخطئ عقلي الباطن فيقود السيارة بدلاً مني ليمر على بيتك، كما أفعل كل أسبوع، واليوم تحديدا كجمعة أخيرة على الأغلب - وآخذك معي إلى الصلاة..

.. وسوف أفتقد تعليقك الأسبوعي المتكرر على

---

(١) كانت كلمة الإنترنت هي شفرة مستعملة بيننا في الهاتف و كنا نعني بها "جهاز استقبال المحطات الفضائية" الذي كان ممنوعاً وقتها و لكننا كنا قد تحايلنا على هذا المنع..

صوت القارئ[١] ذاته قبل صلاة الجمعة. سوف أعلقه أنا - بدلاً منك - وأغص به.. أو قد أبتسم آنذاك في سري لما سيكون زماناً غابراً بينما هو حاضر مضارع الآن...

.. وسوف يفتقدك أولادي. لا أدري ما الذي جعلهم يحبونك لهذه الدرجة. لكنهم سوف يفتقدونك. وأعرف أن الصمود بوجه جامد أمام الاستجواب اللحوح لابني، سيكون عملية صعبة، لكني سأحاول..

.. عشرات التفاصيل اليومية الصغيرة سوف تنهض وتحيط بي - وإلى أن يأتي الزمن بمنجله الحاد ليحصد حدة الافتقاد، سيكون ذلك كله صعباً ومؤلماً.. (.. إلا إذا نشبت الحرب وألهتنا عنه...!)[٢]

* * *

(١) لاحقاً، وبعد سنتين من تاريخ ما كتب، وجدت جثة قارئ القرآن هذا، وآثار التعذيب الشديد بادية عليها..

(٢) نشبت فعلاً بعد عشرة ايام !

.. وكما سأفتقدك في التفاصيل، ستفتقدك التفاصيل أيضاً، لا تصدق أن البشر يتركون آثارهم في الأماكن ويمضون هكذا دون أن تتأثر الأماكن برحيلهم..

كل الأماكن التي احتضنت غربتك يا صديقي، سوف تفتقدك بشكل أو بآخر، ربما لن تستطيع أن تعبر عن ذلك لأنها مكممة بصمتها الدائم لكنها ستفتقدك على أي حال..

نعم، بغداد ـ مائدة العز وما لذ وطاب ـ التي انفضت بعدما نفد الطعام، بغداد الجرح المفتوح في خاصرة الزمان، التي أكل الناس منها عندما كان ظرفها (دبس) ـ وهجروها عندما (الدبس) يبس..

بغداد ـ بغداد البيوت والأزقة والشوارع والنخيل وأطفال المدارس...

بغداد الشاهدة وبغداد المشهودة ..ستفتقدك..

فاذكرها بخير وافتقدها!..

* * *

..وقبل أن يغيبك المنعطف إلى الأبد..

أعترف لك بما لم يعد سراً..، وما قلته مراراً وتكراراً ربما منذ أول رسالة، من أن رسائل البوح

المباح هذه، التي أثقلت رأسي ورأسك، ستجد طريقها إلى رؤوس الآخرين..

.. فاعذرني إذا جعلتهم يتطفلون على أسرارك - إنها أسرارهم أيضاً بطريقة ما - واعذرني إذا جعلتهم يحدقون في جراحك - إنها جراحهم أيضاً.. وسامحني إذا نقلت لهم آلامك.. فإنها آلامهم أيضاً.. لكنهم لا يعلمون..

ذلك كله لا يد لي فيه.. إنه جزء من الخطة المرسومة فوق. لا يتعلق الأمر بي ولا بك ـ وربما كان هذا هو الهدف أصلاً من كل الموضوع: أن أكتب.. وربما لم نكن أنا وأنت سوى ممرين ثانويين إلى ذلك..

* * *

وسيقول" المرجفون في المدينة" أشياء كثيرة ـ لعل معظمها لن يعجبنا..

لم يتعودوا ولم يفهموا كيف يكون الوعظ همسة والدعوة مودة والبوح المباح توغلاً حميماً في الأعماق..

لقد تعودوا اصطياد الضفادع في مستنقعات الرتابة، وتكرار التثاؤب في خطب البلادة..، لذلك لن يفهموا كيف يستحضر الزلزال والطوفان والصاعقة من كلمة صدق تخترق الأعماق بضراوة..

.. وسيقول" المرجفون في المدينة " أشياء مضحكة. وسيفترضون أنك شخص وهمي لا حقيقة له، اخترعته أنا ونسجت حوله الرسائل والأوراق.. وسيفترضون أنك لم تكن أكثر من فأر تجارب في أنبوب اختبار جامد وبارد ومفرغ من الهواء..

لن يفهم المرجفون في المدينة معنى التواصل الحقيقي في الله، .. وكيف أن الصدق في التواصل والود في الله يمكن أن يكون أقصر مسافة بين مجرتين متباعدتين..

لكن سأدع المرجفين في المدينة الآن .. لم يعد هناك وقت ..

* * *

..إنه الرحيل إذن ..

وعليَّ أن أقول كلمات وداع لائقة.

.. وحتى هذا يبدو أن لا وقت له ..

* * *

صديقي يا غريب المجرة ..

عندما يتوادع الناس فإنهم يقولون - من بين دموعهم وأحزانهم ومخاوفهم - كلمات كثيرة، معظمها تقليدي - لكنهم يقولونها بصدق..

يقولون "نراك قريباً" "نراك بخير إن شاء الله" "نلتقي بإذنه تعالى في أقرب فرصة" ويتبادلون العناوين والوعود..

يا غريب المجرة..

الآن لا دموع. ولا كلمات من هذه..

عيناي مغارتا ملح. وفي فمي ماء ..

..والكلمات التقليدية تبدو شاحبة جداً ولا تعني أي شيء لي - رغم صدقها .. (أراك بخير؟..) - والحرب على الأبواب، يتمنى المرء من الله أن يبقيه (يرى) فقط.. ثم بعدها، يقرر ويتمنى يريد أن يرى من، وبأي ظروف..

اليوم، وللحرب على الأبواب، أقول لك، لا أستطيع أن أقول الكلمات التقليدية.

أريد أن أراك بشروطي أنا. بالخير الذي تعاهدنا عليه.. ولن يهمني أن أراك بعد سنتين أو أقل أو أكثر وأنت تأتي كمغترب، بجواز سفر آخر وربما بجنسيةٍ أخرى، وأنت بصحة أفضل وتجاعيد أقل وشعرك أوقف تساقطه، ولكن ليس بالخير الذي تعاهدنا عليه..

ولا أريد أن أجيئك هناك، فأراك وأنت ليس كما أود (.. ولو جئت إليك في البلد الغريب ما كمل اللقاء ..)...

نعم. دعني لا أراك أبداً ولكن فقط : اثبت.

كلمة الوداع الوحيدة التي أراها مناسبة، أود لو أصرخها في وجهك ووجه الحرب المحتملة ووجه الفراق الأكيد - لكنني لا أفعل أكثر من أن أهمسها في أذنيك، ساعة الرحيل، وأقول لك: اثبت..

أكز على أسناني، وأشد على قبضتي: وأقول: اثبت. اثبت. اثبت

.. اضمن لي أنك ستثبت..

وأضمن لك أننا سنلتقي..

.. وأحدد لك مكان اللقاء..

إنه هناك عند الظل.

الظل الذي لا يزول..

* * *

الجو حار جداً.

حر هائل وفظيع، حتى نحن العراقيبن لم نمر بحر كهذا. ستقول لنفسك إنك تشعر أن الشمس على بعد أمتار فقط.. ستنظر فوق وستدهش، إنها فعلاً على بعد أمتار..

الزحام هائل، والناس متداخلون، سيقول أحدهم.. لا تعرفه، وربما يكون أنت شخصياً: إنه زحام كزحام يوم الحشر..

.. ثم ستنظر حولك، وتحاول أن تتذكر ما حدث قبلها.. ربما كان فعلاً يوم الحشر..

.. وستسمع كلمة واحدة تتردد، البعض يصرخها، البعض ينزفها، البعض يهمسها.. نفسي نفسي..

.. ولو تفحصت الوجوه.. ستجد بعضها مألوفاً، وبعضها كان حبيباً.. لكن لا أحد يبقى ليسلم عليك أو يسأل.. نفسي.. نفسي..

.. وستحاول أن تتذكر في أي يوم أنت، هل هو السبت؟؟.. أم لعله الأربعاء؟!

.. إنك لست متأكداً..

.. تشعر بالدوار، تريد أن تجلس.. لكن لا مكان للجلوس.

كل الناس قيام.. نعم، كل الناس قيام.. هل يكون اليوم يوم القيامة؟.. نعم، لا سبت ولا أربعاء..

إنه يوم القيامة..

والناس تتراكض، وتتلاوم، وتتدافع، إنه يوم لا ينفع تدافع، ولا تنفع ملامة..

ولا تسأل فيه عن الطقس.. إنه يوم القيامة!..

.. بعض الناس يريد الموت. والبعض يبدو أفضل حالاً: يطمع بالسلامة..

.. والحر هائل.. بالتأكيد، ماذا كنت تظن، إنه يوم القيامة..

وقطرة الماء سراب، والعطش هو كل تاريخك وذاكرتك..

ستبحث عن شيء تستظل به، لعل الظل يخفف عنا وطأة الحر، وثقل العطش،.. وعذاب الانتظار..

لكن لا ظل هناك، والكل بارزون - لا نستطيع حتى أن نتخفى خلف بعضنا بعضاً - حتى الظل سيكون أمنية قد لا تحقق..

* * *

.. بلى، هناك ظل واحد..

هناك ظل واحد لا يزول..

في ذلك اليوم، ستزول كل الثوابت، وتمحى كل التفاصيل، كل ما كان ثابتاً ومهماً في حياتك سيذوب الآن.. في هذا الحر الهائل - وسيبقى شيء واحد فقط - ثابت.

إنه الظل..

ظل عرش الرحمن .. لن يتحول ولن يزول..

* * *

المسألة هي أنك لا تستطيع أن تصل إلى الظل

بسهولة، ليس فقط بسبب الزحام والتدافع، لكن هناك شروط معينة. هناك فئات محددة فقط هي التي سيسمح لها بالدخول. سبعة تحديداً..

فئة واحدة من هذه السبعة تخصنا..

(.. ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه.. وتفرقا عليه..).

هذا نحن يا صديق. اجتمعا عليه؟.. وتفرقا عليه؟.. نعم، اجتمعنا عليه يوم كان ما كان، وها نحن نتفرق عليه..

وعندما يسمحون للفئات كلها بالدخول تحت الظل، سأصرخ وأشهر ذاكرتي في وجوههم.. نعم، لدي شيء كهذا، عندي حصة في هذا الظل..

.. وهناك - عند الظل - سنلتقي مرة أخرى..

وقد يكون مرَّ على فراقنا عدةُ آلاف من السنين..

ولكن هذا لا يهم الآن. المهم أن نلتقي هناك..

.. وهناك، فقط هناك، سوف نرى ما وعدنا ربنا حقاً.

صدقاً يا صديق.

* * *

.. وهناك يا غريب المجرة، سوف تنتهي غربتنا إلى الأبد..، هناك سوف تتوحد المجرات،.. وسوف يبدأ الأبد..

.. فإذا وصلت قبلي، ودخلت تحت الظل ولم تجدني..، فانتظرني..

.. وإذا وصلت ولم أجدك..، سأفتش أكثر وأكثر، وسأظل أنتظرك..

وهناك - تحت الظل - (إذا سمحوا لي..) سوف أظل أنتظر..

أقول لك الآن: موعدنا هناك. فلا تتأخر..

والأهم من هذا: إياك أن تخلفه..

٢٠٠٣/٣/٨

١٤٢٤/١/٥



.. و كن نبئي العظيم

يا صديق..

قبل أن تضجر، وقبل أن تنام، وقبل أن تقلب الورقة مسرعاً، أريد أن أوضح ما لا مفر من توضيحه..

أعني أني أعتقد أنه علي أن أفسر، فهذه هي الرسالة الثانية[١] التي تستلمها من طبيب أسنانك - ولعلك لم تسمع بمثل هذا في الملة الأولى: أطباء أسنان يرسلون الرسائل، وواحدة تلو أخرى!

* * *

لقد حدثت الأمور على هذا النحو انتهى الأمر (أم تراه ابتدأ؟.)

لذلك سأكتب. وسأعطيك ما أكتبه - لقد كتبته

(١) كانت هذه هي الرسالة الثانية- التي أكتبها من مجموعة الرسائل كلها.

لك أصلاً - وأنصحك أن تقرأه مجاملة، فضولاً، أو اهتماماً وإثارة، من يدري؟ قد تحتك صخور كلماتي بقلبك، فتتولد شرارة، وبعد الشرارة يندلع حريق.. وبعد الحريق يأتي الطوفان.. ومن عمق الطوفان ستأتي السفينة.. (ها قد بدأت!).

أقول لك: قبل أن تضجر وتسأم وتدير وجهك لتنام، اقرأ ما أكتب - على الأقل كخاطرة يكتبها طبيب أسنانك الذي لم تسمع بمثله في الملة الأولى -

إذا كان يضايقك، لسبب أو لآخر، أن تشعر إنها رسالة..

لكن أقول لك، هذه المرة انتبه أكثر. لأني أتحدث عن أمر خطير. أمر جلل.

فاحبس أنفاسك، وترقب. وانتبه.

* * *

عن الإيمان أتحدث..

الإيمان الذي يجعل الناس يقومون من موتهم اليومي، ليقترفوا معجزة الحياة - عن الإيمان الذي يجعل الناس يواصلون حياتهم - يعيشون حياتهم.

عن الإيمان الذي يحي، ويميت، أتحدث.

عن الإيمان الذي يبعث من الموت، من التراب، من الرماد. أتحدث.

عن الإيمان الذي يخرج الناس من قبورهم - التي يتنفسون فيها، ويعيشون، ولكنهم لا يحيون حقاً.

عن الإيمان الذي يزيل عن الناس وهم أنهم أحياء، يبعثهم أحياء حقاً - لا مجرد يتنفسون ويتناسلون.

عن الإيمان الذي يولد من جديد.. أتحدث.

عن الإيمان الآخر - أتحدث.

* * *

لا. ليس عن إيمان العواجيز والدراويش والمتقاعدين عن الحياة.

ولا عن إيمان متسولي تقاطعات الطرق - رغم أنه مربح لهم.

و لا إيمان ربات البيوت - الحاجّات - رغم أنه دافئ ومريح مثل اللَّمَّةِ حول المدفأة في أمسية يوم بارد..

ليس عن الإيمان السائد. الإيمان التقليدي الذي يعني أنك (تصدق) بأشياء معينة، أو (تعرف) أشياء معينة، وتؤدي مراسيم معينة للمصادقة على هذه المعرفة. وكفى الله المؤمنين أي شيء آخر.

ليس عن الإيمان السهل، المتوارث، الغبي، سهل التلقين.

ليس عن الإيمان - حبة الفاليوم، وحقنة المورفين، أتحدث.

ولكن عن الإيمان الآخر.

* * *

عن إيمان ساطع، يشهر نفسه بوجه الليل والظلمة، أتحدث.

عن إيمان خارق، يتحدى الكسل والغباء والبلادة، أتحدث.

عن إيمان مضيء - منير - يطرد الخفافيش ويفتح الشبابيك لتدخل شمس النهار إلى دهاليز النفس وسراديبها..

عن إيمان يجري من الإنسان مجرى الدم. يحتل كريات دمه الحمراء، ويربض مدافعاً في البيضاء، ويتناسل بشراسة في الجينات.

عن إيمان يمنح معنى للحياة، يضيف أبعاداً جديدة لها، يعيد ترتيبها وتأسيسها وتأثيثها..

عن إيمان يجعل ناس يموتون ببساطة من أجل أن يكون لحياتهم معنى..

عن إيمان الفرق بينه - وبين الإيمان السائد كالفرق بين آهة النشوة، وآهة التثاؤب: لا شيء مشترك بينهما.

إنه الإيمان - الذي يحيي ويميت.

* * *

عن نبأ عظيم، أتحدث، سنعلمه جميعاً، ولو بعد حين.

عن هذا النبأ العظيم - أحاول أن أتحدث.

ولأن الايمان السائد لا يمكن أن يكون أكثر من خبراً اعتيادياً في نشرة روتينية ملة فإن النبأ العظيم لا بد أن يكون أخباراً عاجلة - مهمة فوق العادة.

أخباراً تجعلنا نصرخ فرحاً، جذلاً، شماتة، واستثارة - أخباراً تغير حياتنا، تجعلنا نغير خططنا، أو نجعل لنا خططاً بعدما كنا تائهين على غير هدى.

عن نبأ عظيم، يتصدر نشرة أنباء حياتنا - ويهيمن عليها، يجعل لها معنى، أتحدث.

نبأ عظيم، سنعلمه، ولو بعد حين.

* * *

المشكلة في هذا النبأ العظيم، أننا إذا علمناه بعد حين، لن يكون له المعنى نفسه. ستكون حياتنا قد فاتت، وانقضت نشرات أخبارنا دون أن يتصدرها هذا النبأ العظيم، ولن ينفع ندمنا، ولا عضضنا أصابعنا ساعتها.

النبأ العظيم، الذي سنعلمه جميعاً، ولو بعد حين، والذي هم فيه مختلفون، هو أهم نبأ في حياتنا، إنه يتصدر النشرة في الأهمية - وإن كان يتوسطها في الترتيب: نبأ الولادة هو الأول، ونبأ الموت هو الأخير، وبينها يأتي النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون. كل أخبار حياتنا الأخرى .. انتصاراتنا، وأفراحنا، شهاداتنا، وزيجاتنا، وهزائمنا، وانكساراتنا، كلها كلها مجرد تفاصيل هامشية في النشرة، تفاصيل إضافية لن تغير منها شيئاً.

يبقى النبأ العظيم متصدراً، مهيمناً، مسيطراً.

لكننا ويا للأسف عنه معرضون.

* * *

هل تصدق إذن، يا صديق، أن يكون هذا النبأ العظيم هو مجرد أن تصلي؟!.

أقول ذلك لأنك قلت لي: إن كل ما ينقصك هو الصلاة.

إذا كان ذلك حقاً - إذا كان كل ما قلته - وقصدته بالنبأ العظيم هو (مجرد) صلاة، فأي تزييف إذن أحاول أن أنسجه.

وأي سذاجة أن تصدق، (ولن تصدق طبعاً!).

أن تكون حياتك ماضية في طريقها - وكل ما ينقصك - ركعات محدودة العدد - تؤديها وتخلص - هي حالة لا تشبه النبأ العظيم. بل تشبه خبراً روتينياً عن حالة الطقس، في أسترالية مثلاً وقبل عشرين سنة!.

أما النبأ العظيم، فيشبه خبراً عاجلاً بإخلاء المدينة، لأن زلزالاً عظيماً سيضربها خلال عشر دقائق.

ليست مجرد صلاة - ركعات معدودة محدودة العدد والهيئة - وانتهى الأمر.

الأمر أعمق، وأعقد، وأعظم.

الصلاة قد تكون، بل هي فعلاً - تفصيلاً من تفاصيل النبأ. لكنها ليست النبأ العظيم نفسه، إنها مظهر من مظاهره بدرجة ما، ولحد معين ما، لكنها ليست جوهره، وفي أحيان كثيرة جداً (أكثر مما نتخيل) تكون الصلاة موجودة - لكن النبأ العظيم غير موجود - عندها تكون الصلاة: ركعات، سجوداً،

وقياماً، وتمتمة بالشفاه - لكن دونما (صلة) حقيقية به تعالى.

لذلك أقول لك، يا صديق، ليست مجرد صلاة. تضيفها إلى حياتك وينتهي الأمر.

الأمر أعمق، وأعقد، وأعظم.

* * *

لو كان النبأ العظيم يتشكل في صورة محددة لكان مرة غيمة، ومرة إعصاراً، ومرة زلزالاً، ومرة بركاناً، ومرات كثيرة سيكون ضحكة شرسة لطفلك يضحك بها فجأة - وأنت في قمة أحزانك - فيزيح عنك بها أثقال العالم كله.

قد يتخذ النبأ العظيم أشكالاً متعددة - لكنه أبداً أبداً لن يسكن القوالب والأطر الجامدة التي وضعناه فيها - أبداً أبداً لن يكون مجرد ركعات، مجرد صلاة. أبداً لن يكون إضافة لحركات، وينتهي الأمر.

أبداً أبداً لن يكون مجرد تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، كما انتهى تعريفه منذ قرون.

النبأ العظيم - هو شعور ساحق ماحق، صاعقة كهربائية خارقة تتولد في أعصابك، زلزال يضرب كيانك، بركان ينفجر فجاة داخل شرايينك.

إنه ذلك الإحساس الحارق الخارق الذي يمرق مثل النسغ الكاوي داخل عروقك..

إنه الضوء المبهر الذي يسطع فجأة في داخلك، فإذا بك تبصر للمرة الاولى، وإذا بكل حياتك السابقة كانت تخبطاً أعمى في دهاليز مظلمة، وإذا بك ترى الألوان والأشياء والعوالم للمرة الأولى.

النبأ العظيم - نبأ عظيم حقاً: سيمتلك عليك حواسك، وجوارحك، ويشدك من أقصاك إلى أقصاك، ويتوغل فيك من الوريد إلى الوريد.

.. ولن ينال هذا النبأَ العظيمَ، إلا من هو ذو حظ عظيم.

* * *

للتو قرأت ما كتبته، وشعرت ببؤس عظيم.

ففرق كبير بين ما قصدته، وبين ما سطرته.

فالكلمات تبدو هزيلة مهما فخمتها، والمعاني تبدو غامضة مهما وضحتها، والهوة تظل فارقة وقائمة بين الألفاظ والمعاني - مهما مددت عليها من جسور البلاغة وقنوات البيان - والحبر يظل جافاً مهما نزفت من صدقي عليه..

لذلك، أدور حول نفسي، يا صديق، وأحاول أن أبدأ من جديد، بطريقة أخرى.

النبأ العظيم، الذي من بعض أسمائه الإيمان، ليس فعل (امتناع) عن أفعال معينة - أقول ذلك لأني أذكر أنك قلت لي إنك قد امتنعت فعلاً، ومنذ فترة، عن معاصي معينة [الزنى، والخمر تحديداً] وإنه لم يعد ينقصك إلا الصلاة - والاستمرار عليها.

لا شيء أبعد عن النبأ العظيم (الذي هم فيه مختلفون) من مثل هذا التبسيط المخل للأمور.

امتناع عن معاصي، وفعل لمحض حركات؟. لماذا هو إذن نبأ عظيم؟. لماذا هم عنه يتساءلون؟. وهم فيه مختلفون؟. إذا كان كذلك!..

النبأ العظيم سيستلزم قطعاً الامتناع عن المعاصي - والقيام بالأوامر - لكن ذلك مرة أخرى أقول، مجرد مظهر من مظاهره، وعرض من أعراضه، لكن أبداً أبداً ليس جوهره.

ماذا إذن؟. ما هو جوهره؟. ما معنى أن اقول: بركان، وزلزال، وساحق ماحق.

* * *

يا صديق..

لو كان النبأ العظيم رجلاً، يا صديق، لقتلته،

وشرحته، ومن ثم حنطته، من أجل أن أعرف كنهه وأحبسه داخل الكلمات.

لكنه، كما قلت يستعصي على الحبس، يستعصي على القتل والتشريح، ويستعصي .. بالذات على التحنيط..

* * *

إذا وقعت الواقعة، واخترق النبأ العظيم حياتك مثل رصاصة نارية تخترق جبينك، لا يمكن أن تكون وقعته كاذبة: بل خافضة رافعة - تقلب كيانك وماضيك وهياكل ذكرياتك وقيمك، وترتيب أولوياتك.

كل شيء يمكن أن ينقلب رأساً على عقب إذا وقعت تلك الواقعة واخترقك النبأ العظيم رصاصة نارية في جبينك يا صديق..

إلى القمامة يمكن أن يذهب ما كان على القمة من اهتماماتك.

ومتربعاً على القمة يمكن أن يأتي ما لم يكن يأتي حتى في بالك..

نعم. إنه نبأ عظيم. ونعم إنهم فيه مختلفون: والاختلاف لا يكون إلا في الأمور العظيمة.

* * *

يا صديقي..

لو كان النبأ العظيم رجلاً، لاتصل ..

ولأنك دوماً غير موجود، فربما سيجيبه الـ Answer Machine: أنا خارج المنزل، الرجاء ترك رسالة عند سماع النغمة. دوما خارج المنزل، وخارج الموضوع، وخارج كل الأمور. فلماذا تتصوره سيترك رسالة، عند سماع النغمة؟.

سيترك ربما قنبلة موقوتة. أو لغماً. (أو ربما كتاباً) ليس مهماً حقاً أن تكون خارج أو داخل المنزل لتجيبه عندما يتصل بك.

المهم أن تكون داخل نفسك، مع نفسك.

لو كان النبأ العظيم رجلاً، لجاء يطرق باب شقتك ذات فجر ماطر - ولكنك ستكون قد نمت للتو ولما فتحت له الباب.. وعندما تخرج صباحاً لن تنتبه لبطاقته الملقاة على الأرض.

* * *

لو كان النبأ العظيم رجلاً، لسرقت له مفاتيح شقتك منك، وأعطيتها إياه سراً، ولجلس ينتظرك وحده بين أثاثك وعلى سريرك وبالقرب من أشيائك.. وقبل أن تنام كان سيهمس في أذنيك:

حرام ما تفعله بنفسك، حرام أن تهون عليك نفسك، حرام أن تقتل نفسك..

لكنك ستتصور أنك تهلوس، أو ترى كوابيس، وستشد على عينيك وأذنيك وتنام.

* * *

لو كان النبأ العظيم رجلاً، لكتب لك رسالة، كما أفعل الآن أنا، ولأرسلها لك بطريقة أو بأخرى، لكنك كنت ستتصورها رسالة أخرى من صديقك طبيب الأسنان.. ولضممتها إلى مجموعة رسائله. (ماذا لديه هذه المرة؟!).

* * *

ولو كان النبأ العظيم رجلاً، لراهن على نقاء معدنك، وأصالة فروسيتك، كما لا أزال أراهن أنا..

(قل لنا معاً، أنا، وهو: إنه رهان رابح)..

* * *

ولو كان النبأ العظيم رجلاً، لتوسلت إليه أن يطرق بابك بقوة أكبر، ويصرخ في أذنيك بصوت أعلى، ويلح في طلبك حتى يجدك - ويتحدث إليك ويزلزلك بل ويخترقك مثل رصاصة نارية تخترق جبينك.

ولو كان النبأ العظيم رجلاً، لقال لي لقد زرعوا (لو) أيها الأحمق، وطال انتظارهم لها - وما اخضرت.. فابحث عن شيء آخر تقوله.

* * *

لو استطعت، يا صديق، أن أقول كلمة أعرف إنها ستصل إلى قلبك، وعقلك، وكل كيانك، لقلت لك، النبأ العظيم هو أن تفتح عينيك صباحاً لتجد من يهمس لك في أعماقك: لك شيء في هذه الحياة، فقم.

النبا العظيم، هو الذي يجعلك تفتح عينيك أساساً لتواصل الحياة.

لك شيء في هذه الحياة. سيقول لك النبأ العظيم، فقم.

امسح عن حياتك هذه الرتابة، انفض عن ريشك الكسل، واشحذ إرادتك سكيناً حاداً، يمزق خيوط العنكبوت المتراكبة على حياتك وأعماقك.

لك شيء في هذه الحياة، فقم.

النبأ العظيم، هو الذي يجعل إرادة الحياة في داخلك تتغلب على سرطان الرتابة والكسل.

النبأ العظيم، هو الذي ينبت في صحرائك زيتونة

ضخمة (عمرها ألف سنة!) وهو الذي يشق في الجدب والقحط: واحة..

النبأ العظيم، هو هذا الأمل الكاسح - في داخلك - الذي يمكنه أن يمحو الجبال.

النبأ العظيم، هو ذلك الضوء الساطع، في نهاية نفق مظلم.

* * *

درع، وسادة، وخيمة. هو النبأ العظيم.

منديل يمسح الدمعة، وخبزة تَقي من الجوع.

دواء، وحليب لطفل رضيع، وعُكاز لزمن غدار.

وثيقة تأمين، وشهادة ولادة.

شراع للسفينة، ورياح مواتية.

ومرفأ أمين بعد طول إبحار تائه.

بوصلة، ورادار.

حاسوب ومجهر. ذلك كله بعض من أسماء النبأ العظيم (وإن كان الإيمان أشهر أسمائه)..

* * *

لذلك أقول، وسأظل أقول: ليست مجرد صلاة.

لا يمكن أن تكون مجرد صلاة، لا يعقل أن تكون مجرد صلاة.

لا يمكن أن تكون مجرد حركات، تضاف إلى حياتك السابقة [الممتنعة عن المعاصي وينتهي الأمر].

الأمر أعقد، وأعظم.

إنه أن ينبهك شيء من النوم، أن يوقظك من رقدتك، من غفلتك. إنه أن تقوم من قبر حياتك، لتبتدع قيامتك بنفسك.

إنه أن يكون هناك هدف تقوم من أجله صباحاً. هدف يجعلك تفتح عينيك، ولا تغلقهما: لا ضجراً، لا مللاً، ولا كآبة.

إنه أن يعمل محركك الداخلي: - الداينمو - فيضخ في حياتك الحيوية والنشاط ودون هذا المحرك ستكون أترف وأحدث سيارة مجرد هيكل فارغ وسخيف.

لذلك أقول، وسأظل أقول: الصلاة مجرد تفصيل من تفاصيل النبأ العظيم، ولن يقلل ذلك قطعاً من قيمتها - أبداً، إنها التفصيل الذي (قد) يفتح الباب للنبأ العظيم فيما لو كان رجلاً، ودق الباب عليك..

ولذلك أقول لك، يا صديق: افعل شيئاً لحياتك في حياتك، بحياتك ..

اخترع لنفسك هدفاً تقوم من أجله. عد إلى

الفروسية، أخرج كبرياءك من خزانة الملابس القديمة، وامتشقه وامتط الفرس حلماً نضراً، لا يشيب ولا يهرم.

عد إلى دورات الحاسوب، ستفيدك هنا أو هناك، وريثما يتحقق ذاك الهدف الآخر (إن شاء الله) اجعل لنفسك أهدافاً ودرب نفسك على تحقيقها.

ضع لنفسك برنامجاً للقراءة..

لا تدع الوقت ينزلق من بين أصابعك. اشعر به، لا تضيعه، ارتد ساعة (أو على الأقل ضعها في جيبك). ولا تخف منها: إن عقارب الساعة لا تلدغ، والذي يلدغ حقاً - لدغة سامة وحتى الموت - هو أن تضيع الساعة، تلو الساعة، تلو الساعة، ومن ثم يضيع العمر كله.

اجعل من إرادتك أرضاً صلبة تمشي فوقها بثبات، ولا تستسلم للرمال المتحركة التي تحاول أن تجرك الرتابة اليها..

باختصار: لك شيء، بل أشياء، في هذه الحياة، فقم.

* * *

ومن أهم تفاصيل النبأ العظيم، هو أن إيمانك

بنفسك جزء لا يتجزأ من إيمانك به سبحانه وتعالى.

فمنذ أن نفخ الله عز وجل تلك النفخة من روحه في الطين.. ونحن لا نزال نتوارث تلك النفخة الإلهية عبر القرون المتطاولة - وعبر الأجيال المتداخلة - وسواء شئنا أم أبينا: في داخلنا شيء من الإله - رغم طيننا الأرضي - رغم كبائرنا، وسقطاتنا، وزلاتنا، وفظائعنا.

والحق أن الطين وتوابعه تستطيع في أحيان كثيرة أن تطمس علينا تلك الروح العميقة العتيقة - تستطيع أن تطمرها تحت جبال التفاهة والغرائز والروتين لكنها موجودة هناك، في العمق.

تلك الروح لعلها المعدن النقي الخبيئُ نفسه الذي أراهن عليه دوماً ..

(قل لي إنه رهان رابح..).

* * *

فلأعترف: في داخلي خوف أن يكون في داخلك تخوف مما أكتبه. أو استغراب أو استنكار.

الواقع أنه إذا كان هناك استغراب أو استنكار

عندك، فالحق معك. إن المرء لا يقابل كُتّاباً كل يوم(!) وقد لا يقابلهم أبداً طيلة عمره - وهو بالذات لا يتوقعهم عندما يذهب إلى طبيب الاسنان -!!

ولكن أقترح عليك أن تفكر بالأمور بشكل أبسط، فإذا كنت غريباً وأقول أشياء (قد تعتبرها سخيفة) فإني بالتأكيد لست أغرب من قابلته في حياتك..

وكتابة رسائل (أو كتاب) هو أمر في نظري أقل غرابة وسخافة وأكثر احتراماً من إصدار ألبوم أو شريط غنائي - كما يفعل بعض الذين عرفتهم سابقاً في الملة الأولى[١].

لذلك أقول: هذه الرسائل ليست أغرب ما في حياتك - وأنا لست أكثر الناس الذين قابلتهم غرابة.

* * *

ولأعترف أيضاً: إن التخوف الذي في داخلي كان يمكن أن يلجم الكاتب في أعماقي. فلاعتبارات كثيرة مهنية، واجتماعية، كان يمكن ألا أكتب. أي بعبارة أخرى: ألا أفعل شيئاً.

(١) كان لديه من معارفه و اصدقائه من فعل ذلك ..وكنت أعدّ أولئك المعارف العدو رقم واحد!

وأكثر هذه الاعتبارات حساسية كان مسألة سوء الفهم، أو الإنكار، أو الاستهزاء، فالكبرياء يليق أيضاً بأطباء الأسنان، لا الفرسان وحدهم!.

ولقد حسبتها كما يلي: أسوأ ما يمكن أن يحدث (الرفض، الاستهزاء.. إلخ) مقابل أفضل ما يمكن أن يحدث (النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون). وببساطة اخترت أن تخترق الرصاصة جبيني..

* * *

حزمة من الديناميت، أشد نفسي وألقيها في الأعماق، في الداخل، في قاع الروح، في القعر من العقد.

بل اختطف طائرة، يا صديق، ارطمها بجدران الروح، بجدران الماضي، وجدران اللامبالاة.

تنفجر الطائرة. أنفجر أنا. وتنفجر الجدران. وفي الأفق تشرق الأرض بنور ربها.

ومن رمادي أقوم لألم الكلمات والحروف، وأسطرها على أوراق بيض - أكتبها لك ولغيرك - ولأولادكم من بعدكم..

.. (لأن يهديَ الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها)

وذات يوم آتٍ مهما كان بعيداً، سأقف أمامه

حتماً، وإذا بكل ما عملت، وكل ما أنوي أن أعمله، وكل ما سأعمله وأطمح أن أعمله - إذا به كله يمكن أن يكون هباء منثوراً..

رياء هنا، شهرة هناك، غيبة هنا، نميمة هناك.

وإذا بكل شيء محبط - وإذا بي صفر اليدين.

وفجاة، قبل أن يصدر القرار الهائل ربما سيجدون ما أفعله الآن في سجلاتهم- فإذا بموازيني تنقلب.

وإذا بك تنقذني، ولأني نويت أن أنتشلك من هاوية السبعين خريفاً، إذا بك تنتشلني من هاوية عمقها سبع مئة صيف حارق في جهنم.

أقول ذلك، لأني أفعله بإخلاص أشهد الله عليه.

إخلاص حزين، إخلاص يائس، تقريباً دونما أمل.

..إذا حدث ذلك، يا صديق، فستكون أنت، يا للمفارقة، النبأ العظيم الذي سينقذني يوم لا ينفع مال ولا بنون..

(من يدري؟..).

* * *

وأقول لك: أسمعني أخبارك الحلوة...

لا تضنَّ عليَّ بها. قل لي إنك تصلي. وإنك مداوم عليها.

لا تتعقد من الآن بخوف الرياء وتلك الهواجس التقليدية كلها.

لا تبخل علي بالأخبار الحلوة، ولا تكن مثل الزمان: ضنيناً علينا إلا بأسوأ الأخبار.. قلها ولا تخف!. ودع أجنحتي ترفرف، وعصافيري تزقزق، ودع سمائي رغم الظلمة تشرق..

قلها ولا تخف!، ودع أخبارك الحلوة تتصدر نشرة أنبائي العظيمة، يا صديق.



كوابيس قرآنية

عكس السير، باتجاه الأعماق، يغزوني الكابوس ويشدني إلى قمة الوعي.

وبدلاً من نوم رتيب، يساعدني على يومي المرهق، يأتيني نوم محمل بالكوابيس. كوابيس تجعلني أرى صحوي، بطريقة مختلفة - ربما أفضل..

..وبدلاً من آيات "النفس المطمئنة"، والأخرى "الراضية المرضية"، تأتي الآيات الجهنمية لتغزو نومي وصحوي وتستحيل أشواكاً ومسامير أتقلب عليها..

وتشتعل النار في فراشي، ووسادتي، وفي الستائر - كلها منطلقة من رأسي المسكون بكوابيس جهنمية..

* * *

يصرخون.. ويصرخون..

وأهبط إلى القعر كما في مصعد مصمم للهبوط فقط.

أرى وجوهاً كثيرة. بعضها أليفة. بعضها مألوفة. بعضها أكاد أميزها وأصرخ بأسمائها. والبعض الآخر يبدو غريباً كما لو كنت أراه للمرة الأولى.

لكنهم جميعاً يصرخون ويصرخون. ملامحهم تنبئُ بألم عظيم، وصراخهم هو مجرد محاولة للإعلان عن هذا الألم. لكنه صراخ لا يجدي. لا ينفع. إنه ألم مختلف - الصراخ لا يخففه، ولا يعبر عنه. ألم صادر عن كل خلية عصبية في الجسم، عن كل عقدة منتشرة على طول الجهاز العصبي..

إنه ألم تسقط الكلمات والأحرف وهي تحاول أن تعبر عنه.

كطبيب أسنان أتعجب واستغرب. إذن هناك ألم لم يمر بنا نحن أطباء الأسنان.

لماذا كان مرضاي يؤكدون دوماً أنه لا يوجد (ألم) - في الدنيا كلها - مثل ألم الأسنان؟.

قبل أن أستغرق في شماتتي المهنية، أتذكر أنهم على حق. لأن هذا الألم ليس في الدنيا.. ولكن في..

وقبل أن أكمل يفلت مني وجه مميز أكاد أقسم إني رأيته من قبل، لا أعرف أين. أتلفت محاولاً أن أركز عليه أكثر. لكن مصعدي اللعين يستمر في الهبوط. هذا الوجه أعرفه. أقسم إني أعرفه.

لا أعرف أين ولا متى ولا كيف.

لكني أعرفه.

* * *

يصرخون.. ويصرخون.. وأصرخ معهم.

الأغلال في أعناقهم - أحسها غليظة في عنقي -، يسحبون منها - أكاد أسحب معهم - لا يعرفون إلى أين - لا أعرف أنا أيضاً - أحاول أن أغش قليلاً فسأتذكر الآيات لأعرف إلى أين سيأخذوننا-؟. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ .نعم. الأغلال إلى الأذقان، هذا صحيح، وإنِ انتهيتُ إليه بعد أن غششت قليلاً. مقمحون؟. ما معنى مقمحون؟. [أندم قليلاً لأني لم أحاول أن أقرأها في التفسير - أم تراني قرأتها ولم أركز]. لا أعرف ما معنى مقمحون. لكن يبدو أنه شيءٌ رهيب. فوضعهم كله رهيب. نعم. لا بد أنهم مقمحون. بل ومقمحون جداً، مهما عنى ذلك.

لكن أين أين أين سيأخذوننا؟.. أحاول أن أستذكر

بقية الآيات، لكني أعجز، كما لو أن النار قد دخلت في دماغي وحرقت هذا الجزء من ذاكرتي بالذات.

وأستذكر - بهلع خرافي - كل الأهوال التي تسكن ذاكرتي الافتراضية - والتي يمكن أن تكون تتمة الآية: المكان الذي يسحبوننا إليه بينما الأغلال في أعناقنا فهي إلى الأذقان فنحن مقمحون..

هذه المرة: أصرخ أنا. ويصرخون هم معي.

* * *

اتأمل في الأغلال..

لا أشعر أنها غريبة جداً عني.. أشعر أنها لم توضع هنا في جهنم.. بل كانت موضوعة أصلا في الدنيا.. وضعها أصحاب الأعناق بملءِ إرادتهم أو بما يتصورون أنها ملء إرادتهم..

إنها أغلال دنيوية جداً.. لكنها في الدنيا كانت تأخذ أشكالاً أخرى.. ربما هوايات، ربما عادات، ربما أنماط حياة، ربما عبودية لمفهوم أو أيدلوجيات.. المهم أنها أغلال، في الأعناق، وهم مقمحون.. لا يستطيعون أن يروا شيئاً لأن الأغلال لا تدعهم أصلاً أن يروا شيئاً..

تلك الأغلال "هناك": هي نسخ أخروية من أغلال

"هنا": نحن نضعها بأيدينا في أعنقنا.. ونملك أن نفكها.. لو أردنا..

* * *

وجوه.. وجوه.. وجوه.

تمر بي كما في شريط سينمائي مؤلم وموجع - لأنك ترى كل الوجوه التي عرفتها في حياتك، وهي مكدسة وملقاة في مكان يجب ألا تجدها فيه..

وجوه الذين عاشرتهم وعاشروك. وجوه الذين تربيت معهم وتربوا معك. وجوه الذين أحببتهم وأحبوك. والذين كرهتهم وكرهوك. أولئك الذين كانوا أصدقاء أوفياء والآخرين الذين أثبتوا أنهم أنذال.

وجوه أحببتها - بصمت - ولم تلق لك بالاً.

ووجوه أحبتك - بصمت - ولم تلق لها بالاً.

وجوه غدرت بك ووجوه غدرت أنت بها.

وجوه، فوق وجوه، تحت وجوه.

وكلها في مكان لا تحب أن تكون فيه.

وكلها تصرخ. وتصرخ.

وتصرخ أنت معها..

* * *

وتلك الوجوه الغالية..

وجوه أولئك الذين أحببتهم حقاً في حياتك: وجوه أهل أقارب.. [عندما لا يكونون عقارب].

ووجوه أصدقاء نادرين أضاؤوا بصداقتهم حياتك..

.. والوجوه الغالية الغالية، أثمن ما عندك في الكون، وجوه صغارك - كنزك الحقيقي والوحيد..

كلها وجوه - كان يمكن في وضع آخر - أن تدفع بحياتك ثمناً لكي تمنع عنها حريقاً من الدرجة الأولى..

.. ها هي مكدسة. ولا شيء يمكن فعله.. بل تستمر في تقليب الوجوه..

.. وتصرخ..

* * *

ووجوه أخرى..

كرهتها فعلاً طيلة حياتك. حقدت عليها بصدق. وتمنيت لها هذا المكان من كل قلبك. وطالما أسكن آلامك أن تقول إن مأواها جهنم وبئس المصير.. وجوه ظَلَمةٍ وفَسَقةٍ ظلموك وظلموا غيرك..

ها هي ذي مكدسة أمامك لكن: لا شماتة. لا

لسمو أخلاقك ، بل لأنك تخاف أن يكون الوجه التالي هو وجهك.

أو إنك تخاف أصلاً أن يكون وجهك في طبقة أسفل!.

لذلك: تصرخ أيضاً. وتصرخ الوجوه معك.

* * *

في مكان ما، أسمع أصواتاً - بعضها يبدو مألوفاً، لا أدري لماذا؛ لكن يخيل لي إني سمعتها قبل: ربما في الهاتف، وربما في حوار - ربما كان صوتي - لا أدري ولا أرى شيئاً، هذه النار سوداء، ودخانها خانق - لا أرى. لكن أسمع أصواتاً - يعذبني أنها مألوفة بغموض دون أن أستطيع تمييزها. أحاول أن أركز أكثر..

إنها مجموعة أصوات [وهذا بغيض أكثر، لأنها صارت كلها تبدو مألوفة دفعة واحدة، كما لو كانت أصوات أناس تعرفهم معاً - لكنني الآن عاجز تماماً عن تمييزها].

أنصت: إنهم يستصرخون شخصاً ما. يطلبون منه النجدة والمساعدة. أحاول أن أركز في اسم الشخص الذي يستصرخونه - من أجل أن أصرخ معهم أنا أيضاً، وأطلب مساعدته.

أركز أكثر: هل يا ترى يصرخون باسمي؟. هل يعرفون أني هنا؟. وهل يتصورون أني أستطيع لهم شيئاً؟. هل يعني ذلك أنني لست معهم هناك - خلف السور وعبر الدخان؟.

لكن لا. أسمع الآن الاسم بوضوح اكثر: مالك. إنهم يصرخون: يا مالك.

يبدو الاسم مألوفاً. أفتش بقايا ذاكرتي التي لم تحرقها النيران الممتدة إلى دماغي. من هو مالك؟ - لا أعرف أحداً معيناً اسمه مالك يمكن أن تربطه صلة بهؤلاء الذين أشك أني أعرفهم خلف السور وعبر الدخان..

أرهف السمع عبر فحيح النيران الملتهبة: يا مالك - يا مالك - تصرخ الأصوات المألوفة. أصرخ معها: يا مالك..

يسرب الزفير الملتهب جملة واحدة واضحة - بصوت يقتلني..! كم هو مألوف: يا مالك. ليقضِ علينا ربك..

الآن تذكرت! مالك - إنه خازن النار - [كيف نسيته؟ لعلها ذاكرتي المحروقة..].

وها هي ذي الأصوات المألوفة تناديه وتتوسل إليه - وقد ناديته معها - أفهم الآن معنى هذا التوسل.

لم يطلبوا منه أن يخرجهم من النار. لم يطلبوا منه أن يتشفع أو يتوسط.

كان أقصى أمانيهم أن يقضى عليهم..

أعي الآن برعب معنى ذلك.

سنوات وسنوات وسنوات وأنا أمر على الآيات ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ .أحياناً بخشوع وأحياناً بلا مبالاة، وأحياناً من أجل الختمة وكلها من أجل الأجر - لكن لم يمر أبداً في بالي أني سأصادفها وأكون جزءاً منها..

برعب أفكر، إذن سيكون أولئك الذين نادوا يا مالك أناساً عرفتهم، ألفتهم، أحببتهم.

برعب أكثر أفكر: لعلي كنت معهم.. لعل صوتي كان من ضمن مجموعة الأصوات التي كانت تنادي - خلف السور وعبر الدخان - يا مالك.

.. وبرعب أبحث في ذاكرتي المشتعلة عن تتمة الآية. ماذا أجابهم مالك - ماذا أجابنا مالك؟..

لكن ذاكرتي لا تنقذني. إني سيئ الحفظ أساساً (وحتى في أوضاع أفضل من هذه) - لكن صوت مالك يصلني قوياً، مستخفاً، شبه هازئ: إذ يقول.. ببرود: إنكم ماكثون.

ماكثون!.

أصرخ أنا. وأسمع الأصوات: خلف السور وعبر الدخان تصرخ أيضاً.

ماكثون...

ويبدو أن الصراخ ماكث أيضاً.

وأصرخ!.

* * *

في زحام الوجوه، لم أر وجهاً واحداً يسأل عني.

أتفهم ذلك الآن. طالما سمعت بذلك. لكنني الآن أعيه - ولأني لم أصبح بعد جزءاً أصيلاً من المشهد - فإني أستطيع أن أتفرج هنا، أتجول هناك، وأسأل عن هذا أو ذاك - ما دمت في كابوس - ما دام لا زال عندي (فرصة للرجوع)..

لكني أفهم بوضوح: عندما أكون معهم، لن أسأل عن أحد.

في زحام الوجوه، لن ترى وجهاً واحداً يسأل عنك.

في زحام الوجوه: لا أحد!.

* * *

بين شهيق النار الهائل وزفيرها.. أسمع أصواتاً أخرى.

ومرة أخرى أحسها مألوفة. بشكل أكثر وضوحاً - أحاول أن أصغي السمع لكن شهيق النار أعلى صوتاً..

إنهم ينادون الخزنة - دونما تحديد هذه المرة - لعل مالكاً لم يكن موجوداً، لعله في مكان آخر.. أعي تماماً أن مناداة الخزنة دون اسم لا يعني أن الأمر بخير - ها أنت بيد حراس وزبانية وخزنة تجهل حتى أسماءهم - على الأقل مع مالك كان هناك نوع من الحميمية ورفع الكلفة في النداء والتوسل..

أما هنا - فالخزنة أكثر غموضاً ورهبة - إنهم بلا أسماء.. وربما بلا وجوه!.

وتبدو الأصوات أكثر ارتجافاً - وتظل مألوفة وتلح على الذاكرة التي لا تزال النار تشتعل فيها - هذا الصوت تعرفه، واسم صاحبه على طرف لسانك - لكن النار وصلت إلى لسانك الآن، لذلك فهو لن يسعفك في اسم صاحب الصوت الذي تعرفه..

بين الشهيق والزفير أركز، محاولاً أن أعرف ماذا يصرخون - لعلي بينهم هناك خلف السور وعبر

الدخان - ولعلي أصرخ معهم. فلأحاول أن أعرف ماذا أقول..

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

هذا هو أقصى طموح هنا!.

على الأقل مع مالك - كان هناك هدف أوجه..

﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾.

يقضي وينتهي الأمر. شيء مثل موت لا قيامة بعده..

مع هؤلاء الخزنة الغامضين، الطموح أشد تواضعاً، والطلب أبسط..

إن الأصوات [التي يقتلني كم هي مألوفة] تطالب بتخفيف العذاب.. ليوم واحد!.

يوم واحد فقط - وأمامها الأزل بأكمله..

يتوسلون وينادون ويدعون من أجل تخفيف عذاب يوم واحد - بعدها يعودون للعذاب الأزلي..

لا أحاول أن أستذكر تتمة الآية. إني في عمقها وأتابع الحدث بشكل مباشر. ها هم الخزنة - الغامضون الذين لا أسماء لهم وربما لا وجوه - يراوغون ويجادلون.. - على الأقل لديهم أصوات..

ثم ﴿فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

استمروا في الدعاء. استمروا في التوسل والنداء. اقضوا الأزل كله وأنتم تطلبون تخفيف العذاب ليوم واحد فقط.. لن ينقضي أبداً..

.. وتستمر الأصوات المألوفة - التي تقرع أبواب الذاكرة بشدة - في النداء والتوسل: يوم واحد فقط.. يوم واحد فقط - الأزل كله سيظلون يتوسلون تخفيف العذاب ليوم واحد - عذاب آخر سيضاف إلى قائمة عذاباتهم..

الأزل كله.. استمروا في التوسل.

برعب أرى ذلك. برعب أفهم الآية للمرة الأولى.

* * *

كل الأصوات التي كانت تصرخ - من خلف أسوار الجحيم - كانت مألوفة.. لكن بينها صوت واحد كان مميزاً بشكل مرعب..

صوت واحد كان يلح علي لأعرفه. يكاد يقول لي: احزرني من أنا..

أحاول أن أحزر - لكن هذه النار - وهذه الذاكرة - من؟ من؟ من؟..

- لا أعرف..

- لعله صوتي - لا أدري، لم أسمعه كثيراً، ولم أركز فيه كثيراً - عندما نتكلم ونثرثر ونلغو فإننا

نحاول عادة أن نحصد الإعجاب ونرصد ردود الأفعال عند سامعينا - ولا نحاول أن نركز في صوتنا - لم أكن أدري أني سأقف خلف أسوار النار أتنصت على الأصوات أحاول أن أعزل صوتي بينها.

لا أدري. لعله صوتي.

(أم لعله صوتك أنت يا صديق - إنه يبدو مألوفاً وحميماً كما يبدو صوتك على الهاتف..)

لعله يشبه صوت ابني - عندما يبكي خاصة - فيه شيء منه، وإن كنت لا أدري كيف سيبدو صوته عندما يكبر، لكن شيء فيه، في حرقته، في لوعته. هناك شيء منه..

أم لعل هذا الصوت عالق في أعماق لاوعيي - ويشبه الصوت الذي لا أذكره لوالدي..

- لا أعرف!.

صوت ما، مميز، خلف أسوار النار يصرخ.

صوت ما، لشخص أعرفه ويعرفني، ربما أنا، ربما أنت، ربما ابني، وربما والدي..

* * *

يا مالك..

قل لي كيف أحمي نفسي وأحبابي من هذا المصير.

يا مالك..

قل لي كيف أتحاشى مقابلتك وزملائك الغامضين الذين لا أسماء لهم ولا وجوه..

قل لي كيف لا أنتهي ولا أحبتي إلى هذا الدرك.

يا مالك.. قل لي كيف أقي أحبتي من هذه النار التي تتأجج وتشتعل في رأسي..

يا مالك.. قل لنا كيف، ادع لنا ربك ليبين لنا كيف.. ما دام لي (خط رجعة)، ادعه فليبين كيف لا أنتهي إلى هنا - أنا والذين أحبهم وأعرفهم..

لكن مالكاً لا يجيب. على الأقل فوراً، وبعد نظرة طويلة غامضة ومدمرة، يجيب: إنكم ماكثون.. (يبدو أنه مبرمج على هذه الكلمة فحسب) - وقبل أن ألح أكثر وأتوسل أكثر، ألمح في زحام الوجوه ذاك الوجه الذي رأيته قبل قليل.. أحاول أن أتفرس فيه أكثر لأميزه، لكنه يفلت مني ثانية..

لكني أعرفه. أقسم إني أعرفه. ولولا أن النار - على ما يبدو قد التهمت هذا الجزء من ذاكرتي لكنت صرخت باسمه.

لكن الوجه أعرفه. أذكره. الملامح.. التفصيلات. هناك علامة فارقة لا أنساها..

لكن - من؟. وجه من؟.

لعله وجه صديق حميم؟ - من أولئك الأصدقاء الذين أضاؤوا حياتي..

أحاول أن أستذكرهم واحداً واحداً من عهد الطفولة الغابرة - يدهشني كيف أن كل اسم من أسمائهم يعذبني مثل سكين جارح في الأعماق..

- رغم كل العذاب المحيط بي - لا يزال هناك عذاب أكثر، ومجرد استذكار أسماء الأحبة - وفكرة أنهم هنا في هذه النار - يعذب بشكل خرافي - أكثر حتى من هذه النار التي تشتعل في رأسي..

حتى تلك الصداقات القصيرة المضيئة مثل الشهب - تسعفني ذاكرتي بها لعلني أذكر الوجه المألوف: ويمزقني أن أتذكر..

- في أعماقي أعرف أنه مجرد كابوس، وأنه عندما تقع الواقعة ويصير الحق حقاً فإني لن أسأل عن أحد. ولن أتذكر أحداً - ولن يسأل عني أحد أو يتذكرني أحد

.. تظل سكين الذاكرة تجوس في أعصابي - كل اسم يعذبني، يصير العذاب أسطورياً مع أسماء أصدقاء النضج والشباب.

(وبين الأسماء يأتي اسمك يا صديق. تراه وجهك؟).

أحاول أن أركز أكثر. نعم، فيك شيء من هذا الوجه. لكني لست متأكداً.

هذه المرة تجوس السكين في شيء اسمه الضمير - معك بالذات، لقد حاولت أن أمنع هذا المصير وهذه النار عن وجهك - حاولت ربما بإخلاص، لكن إذا كان هذا الوجه وجهك يا صديق - فمحاولتي كانت فاشلة، وإخلاصي لم يكن كافياً).

عذاب الاستذكار صار لا يصدق.

يا مالك.. قل لي لمن هذا الوجه الذي أقسم إني أعرفه؟.

قل لي اسم صاحبه وارحمني - لا بد أنك تعرفه - لا بد أن لديكم سجلات ووثائق وصور وأشياء من هذا القبيل.

قبل أن يجيبني مالك - وأعرف أنه سيقول لي: إنكم ماكثون - يأتيني خاطر مرعب يصير معه كل العذاب السابق هيناً: هذا الوجه المألوف تراني كنت أراه سابقاً في المرآة؟؟.

* * *

.. يا مالك.. فليقض ربك على هذا الكابوس.. فلينهه.. فليطفئ النار المشتعلة في رأسي ووعيي وذاكرتي وذكرياتي..

يا مالك.. دعني أصح من الكابوس. إنني أتعذب مثلما يتعذبون. وأصرخ مثلما يصرخون. لكن وقتي لم يحن بعد. إنه مجرد كابوس.

يا مالك.. يا مالك..

ويلتفت إلي، ويجيب جوابه الأوحد والوحيد: إنكم ماكثون.

* * *

محاكمة ما، في القعر، استجواب هو في واقعه عذاب. أدس وجهي بين الرؤوس المحتشدة بفضول وبخوف. فضول لأنها طبيعتي البشرية. وخوف أن تكون المحاكمة منعقدة من أجلي! أتنهد بارتياح! لست أنا. إنه شخص آخر. يبدو مألوفاً جداً. يبدو واحداً من أولئك الناس الذين قد تلتقي بهم في السوق أو على الناصية أو يكونون قد درسوا معك في المدرسة..لا يبدو شريراً أو مجرماً - إنه مجرد شخص عادي. أقول مع نفسي إن المظاهر خداعة. وإن الرجل قد يكون مجرماً أو ابناً عاقاً أو مختلساً كبيراً أو أي شيء آخر.. الرجل يصرخ بينما يضعونه على المنصة قائلاً: "إنه لم يفعل شيئاً"..، لا يبدو ذلك غريباً أبداً..كل المذنبين يقولون ذلك..، لا أتصور أبداً أن مذنباً سيقف على

المنصة ويصرخ: خذوني، حاكموني.. لقد أذنبت فعلا..كلهم يؤكدون براءتهم، وستكون نبرتهم نبرة صدق ..

لدهشتي ، ولدهشة المتهم، وبينما هو لا يزال يصرخ "إنه لم يفعل شيئا" يقال له إنه لم يفعل شيئاً بالفعل ..للحظات تبدو علائم الارتياح على وجه المتهم كما لو أن حكم البراءة قد صدر بحقه.. لكن سرعان ما يقال له بحسم: إن تلك هي تهمته بالتحديد .. "إنه لم يفعل شيئاً" ..

أذهل ويذهل هو أيضاً.. دوماً كنا نتصور أننا سنحاسب على أفعالنا.. وها هي ذي الحقيقة تكشف لنا أننا سنحاسب أيضاً على ما لم نفعله.. على ما كان يجب أن نفعله ولم نفعله..

يبدو الأمر مشوشاً ومرعباً.. أحاول أن أسترجع ذاكرتي من النيران لأعرف: هل فعلت شيئاً.. أم إني لم أفعل؟

شخص آخر .. على منصة مماثلة.. مجرد شخص آخر يشبه سابقه ويشبهني ويشبهك أيضاً يا صديق بطريقة ما.. على المنصة يصر المتهم على براءته، بالتأكيد، كما سنفعل جميعاً عندما نقف هناك، من بين شفتيه، يقول المتهم إنه كان دوماً

"مطيعاً" - ينفذ ما يقال له "بالحرف الواحد" تحسباً ليوم كهذا.. بالذات كي لا يكون هنا..

لدهشته، ولدهشتي أنا أيضاً، سيقال له إن هذا ما أودى به تحديداً.. إنه كان يتبع كل ما يقال له دون أن يدقق .. دون أن يحاول أن يتأكد ليغير أو يصحح ..احتج المتهم بأنه كان" بلا علم"... وكان عليه أن ينفذ ما يقال.. يأتيه الرد أنه كان قد أخبر سلفاً ألا "يقتفيَ ما ليس له به علم " من أجل أن يتعلم لا من أجل أن يسلم رأسه للآخرين.. سيقال له إن تهمته الأصلية هي "إساءة استخدام الأدوات الموجودة عنده"..سيبدو مرتبكاً وهو يحاول أن يفهم، متأملاً أن يكون هناك في الأمر خطأ ما وأنه ليس الشخص المقصود.. يسأل عن الأداة المقصودة على ذلك الأمل: فيشار إلى رأسه ويقال له " أنت متهم بإساءة استخدام عقلك ".. يندفع المتهم لدفع التهمة.. فيقسم أغلظ الأيمان إنه "أصلاً لم يستخدم عقله في شيء مهم" .. ويأتيه الرد سريعاً وحاسماً.. "هذا هو.. عدم الاستخدام هو أسوأ استخدام يمكن تصوره"..

* * *

يأتي شخص آخر..شكله مسكين ومظلوم.. وقبل

أن يصعد على المنصة سيبدأ بسرد المظالم التي تعرض لها في حياته.. ستشعر بالتعاطف معه.. وستتصور أن صعوده على المنصة كان من أجل استدراج من ظلموه.. أو على الأقل إنه أحضر كشاهد وليس كمتهم.. هو على الأقل يبدو واثقاً من ذلك..

قبل أن يستمر في سرد مظالمه، وكيف أنه كان الضحية دوماً، يأتيه صوت حاسم آخر يقول: إن تهمته بالذات هي محضر دفاعه.. وإن كل تلك التفاصيل التي يسردها هي أدلة ضده لا معه..

يبدو مذهولاً وهو يحرك رأسه يميناً وشمالاً.. "لقد كنت أنا المظلوم هنا".. يردون عليه بسرعة: لقد ظلمت نفسك بالسماح لهم بظلمك... أنت من سمح لهم بأن يفعلوا ذلك ابتداءاً.. وعندما تمادوا.. كان ذلك لأنك لم توقفهم عند حد معين"..

"كنت مظلوماً".. يردد المتهم وهو ينتحب.. يردون عليه "كنت ظالماً لنفسك لأنك سمحت لنفسك أن تبقى بهذه الخانة.. لقد ركنت لها وارتحت أيضاً..كنت ظالماً باستسلامك لجلادك..كل ضحية ظالمة ما لم تكف عن لعب دور "الضحية"... قبل أن يسحب بعيداً.. يلتفت ليقول: إن هذا هو ما

أفهموه إياه طيلة حياته.. أن يكون مظلوماً لا أن يكونَ ظالماً..

سيقولون له بسرعة: نعم .. وستراهم هنا أيضاً على المنصة نفسها قريباً.. لقد أفهموك أن العالم يتكون من خانتين فقط.. خانةِ الظالم و خانة المظلوم.. لم يقولوا لك إن هناك خيارات أخرى..

برعب أراقب ما يدور: أتامل منصة يوم الحساب، أتأمل الأفراد الذين يصعدون عليها : إنهم لا يمثلوننا كأشخاص فقط .. بل يمثلون الثقافة التي أنتجتنا أيضاً وجعلتنا بهذا الشكل..

التهمة الأكثر رواجاً لن تكون من تلك التهم التي تأتي تقليدياً في تصورنا عن الموضوع، ستكون تلك التهم موجودة طبعاً، لكنها ستكون ضمن حيثيات تهم أخرى رئيسية..

التهمة الأكثر رواجاً ستكون ما نسميه اليوم بلغتنا الحديثة "تهرباً وظيفياً".. أو تهرباً من أداء الوظيفة...

مجاميع هائلة، بلا عدد ولا حصر، ستحشر من أجل تلك التهمة.. سيبدون مشدوهين وهم لا يدركون الأمر بالضبط .. أي وظيفة هذه التي تهربوا منها؟ بعضهم سيؤكد أنه كان ملتزماً جداً

بوظيفته.. والبعض الآخر سيقول إنه كان عاطلاً عن العمل ولم يجد أصلاً وظيفة ليتهرب منها..

بين هذا وذاك وفي خضم حشر لا يمكن تشبيهه بالعيد... ستسري بين الجموع المنتظرة للمحاكمة، إشاعة عن الوظيفة التي عينوا فيها أصلاً وتهربوا من أدائها..

سيقولون، مدهوشين، والدهشة تكون أحياناً نوعاً من العذاب ، سيقولون: "يقال إننا تهربنا من أداء تلك الوظيفة.. وظيفة خليفة الله في الأرض..

* * *

وجه آخر ، مألوف بشكل مزعج، من تلك الوجوه التي تراها فترتاح إليها.. وجه يمتلك القبول. يمتلك زمام تلك الكيمياء الغامضة التي تحدث بين الأرواح والنفوس. فيستطيع أن يجذب الناس دونما سبب واضح.

أتأمله بفرح لأنه لست أنا!.. وأقرر: لو كان هذا داعية لتغير على يده ربما مائة ألف.. (أو يزيدون..).

ينادون على الشهود والضحايا. فإذا بهنَّ نساء!.

إذن كان يستعمل قبوله من أجل أن يحصل على قبولهن بعروضه!. وكيمياء الأرواح والنفوس كانت

تستعمل من أجل تلك المعادلة الأخرى؟ - كيمياء أيضاً، رغم الفرق بينهما.

(يا إبليس الغواية. يا شيطان الإقناع. يا معسول الكلام. يا بعيد الوعود. يا كذوب العهود. يا أفعى اللمسات. يا فحيح الهمسات.

يا زير النساء. يا سيد الإغواء.

يا بارع الصمت - يا مفخخ الدهاء..

تلك كانت أيامك، كانت لك - واليوم - اليوم صار عليك..).

ينادون على الشهود - الضحايا. بعضهن بنات "عوائل". وأخريات مجرد "بقايا "وبعض بين هاتيك وهاتيك..

واحدة ستقول إنك كنت زلتها الأولى. وستتهمك طبعاً بكل زلاتها التالية. وواحدة ستكون أنت زلتها العاشرة. لكنها ستتهمك أيضاً بكل زلاتها الأخرى.

واحدة ستقول إنك كنت مجرد ثمن. نقود. دفعتها وانتهى الأمر بينكما..

وواحدة ستقول إنك السبب في كل انحرافها - وإنها ابتدأت معك بإعجاب حقيقي وأخذها (قصدك الشريف) إلى أن صارت مومساً..

واحدة تلو أخرى تلو أخرى..

بعضهن سيظهرن في محاكمات أخرى لأشخاص آخرين - ستتداخل المحاكمات وتتعقد- وهو التداخل الذي يسبب عادة العدوى والالتهابات (طبعاً تفهم ما أعنيه.. يا إبليس الغواية يا زير النساء..)

وستنتظر أن يأتي دورك للدفاع. وستستعيد في ذهنك كل ما أقنعك بك شيطانك في فن الإقناع - يا شيطان الإقناع -

تريد أن تقول إنك كنت شاباً ككل الشباب، وإن هؤلاء الفتيات كن يردن مثلما كنت تريد، وربما أكثر، وأنهن كلهن كن يعرفن ماذا تريد منهن.. لكنها أصول اللعبة - لعبة جر الحبل - أن تكذب، وتعد، وتقنع بمعسول الكلام ومخدره وسامه.

تريد أن تقول ذلك.

لكن من فمك سيخرج لسانك. سيخرج عن مكانه وسيقف في منصة الشهادة. وسيعترف وسيشهد.

نعم قلت كذا. نعم وعدت كذا. نعم استدرجت إلى كذا..

مشدوهاً ستقف: طالما سمعت بذلك. ها هو يحدث لك الآن.

وبعد اللسان ستخرج عنك كل الحواس (التي استعملتها في ذلك!) لتشهد عليك.

لقد تبرؤوا منك جميعاً. أين إذن شيطان الإقناع - إبليس الغواية - الذي جرك إلى هذا المكان؟ لا تبحث عنه. لا تتعب نفسك في البحث. إنه أول المتبرئين....

- يا مالك - دعني لا أكمل هذا المشهد.. أبعدني عنه - إني أعرف نهايته: وقلبي يتفطر لأن لسانه وأدواته وإمكانياته لم تستخدم من أجل اقناع الناس بأن يستيقظوا من نومهم ، ولم يتغير على يديه مائة ألف.

يا مالك، كمم فمي.. دعني لا أعلق بشيء.

- (يدهشني تماماً أنه يطيعني هذه المرة).

* * *

أكثر ما كمم فمي وسيطر علي هو ذلك السؤال الذي كان يخيم على كل المحاكمات، وعلى كل الاستجوابات..

إنه سؤال بسيط، بسيط جداً، لكن جوابه معقد جداً.. ويلخص القصة كلها.. قصتنا وقصة غيرنا..

إنه سؤال: هل فكرت أن تترك هذه الأرض وهي

مكان أفضل مما دخلته؟ هل جاء ذلك أصلاً في بالك؟ أم إنك كنت تخوض مع الخائضين؟

* * *

..وجوه أراها في القعر. أعرفها ولا تعرفني. أكرهها بصدق. إنهم مجموعتك السابقة. صحبة السوء التي يمكن أن تؤدي بك إلى جهنم.

لم أكن أريد أن أراهم في الدنيا. وبالتأكيد لا أريد أن أراهم هنا في جهنم. لا أشعر بالشماتة ولا بالفرح ولا بأي شيء. لدي ما يهمني وسحقاً لهم..

قبل أن أشيح بوجهي، ألاحظ أنهم يتشاكسون ويتخاصمون. الويل لهم: حتى في جهنم لازمتهم أخلاقهم السيئة..

أركز فيما يقولون. يبدو أنهم قد افتقدوا واحداً من عصبتهم. يريدونه معهم. في عذابهم، في جحيمهم - لا حباً به - بل حبّاً بعذابه.. - إنهم يستخسرون فيه أن ينجو.

﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ❖ اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ❖ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [ص: ٣٨/٦٢-٦٤].

ابتعد عنهم متمنياً أن يكون تخاصمهم فيك. وإنهم يفتقدونك أنت. وإن الأبصار لم تزغ عنك إلا لأنك نجوت. لأنك في المكان الآخر.

رغم عمق الكابوس، أرى ثمة أمل.

* * *

النار.. تلتهم كل شيء.

الوجوه، الذكريات والذاكرة.

لا أرى شيئاً.

النار أكلت كل شيء. لم يعد هناك زحام وجوه.

لم يعد هناك أحد.

حتى مالك.. لم يعد يجيب - لا أدري أين ذهب..

وحدها النار - أحاول أن أتوقف عن الصراخ.

أفكر في أن أصلي، أتساءل إذا كانت ستنفعني - صلاة النار، هذه -

أعني إنه مجرد كابوس، وإن عملي لم ينقطع بعد..

أحاول أن أصلي، قبل أن أنهي سجودي يتفتق وعيي عن ذكرى مرعبة.

لقد حزرته! ذلك الوجه الذي طاردني وطاردته والذي لم أكن أميزه رغم أني كنت أكاد أقسم إني أعرفه.

لقد كان على طرف لساني طيلة الوقت. ولم أكن أعرفه.

لكني الآن عرفته: ذلك الوجه. تلك الملامح. وهذه العلامة الفارقة: الذقن الذي أعشق. ذقن ابني الذي ورثها مني والتي ورثتها أنا عن أمي..

برعب أعي: إنه وجه ابني - ابن الخمس سنوات - ولم أعرفه لأني رأيت وجهه وهو شاب، كيف لم أفطن إلى ذلك..

من عمق الكابوس أصحو. وبعمق جهنم أقرر: عندما ينتهي هذا الأمر، سأكرس حياتي من أجل أن أمنع ذلك.

* * *

صوت ما، حنون وعميق، يتسلل.

ومع تسلله تنطفئ النيران. وبالتدريج تخبو، بهدوء تكاد تنطفئ.

إنه صوت الأذان، يتسلل من كل مكان وتحسه يكاد ينبع من قلبك.

تختفي النيران.

أفتح عيناي: لا نار. لا في الوسادة، ولا على الستائر. ولا في رأسي..

فقط صوت الأذان ..

وللمرة الأولى أنتبه كم هو حنون وهادئ صوت هذا المؤذن. لا أدري لماذا لم أنتبه لذلك من قبل. إنه يكاد يخرج من الأعماق كما لو كان صوت بلال نفسه أو كما لو كان نابعاً من أعماق قلبك - لو لم أكن أعرفه شخصياً وعالجت له أسنانه لقلت شيئاً كهذا.

يكمل المؤذن. الصلاة خير من النوم (خصوصاً مع نوم كهذا..).

أقوم. لأتوضأ. في الطريق أتأمل وجوه أولادي التي أعشق. وأستذكر الكابوس كله. وأستذكر كل تلك الوجوه التي يمكن أن أكرس حياتي لأمنع عنها هذا الكابوس. (عندما يصير الحق حقاً).. وعن نفسي...

أذهب لأصلي، بخوف وبحزن - لكن بأمل، دونما يأس، بطريقة غير تقليدية، أقول: إن شاء الله.

الأربعاء ٣٠ / ١ / ٢٠٠٢



دوماً هناك

يا صديق ..

لا تبحث عنه في الكتب ولا في المعاجم ..

لا ترفع ببصرك إلى سبع سماوات ..

لا تتعب نفسك في أفكار عقيمة ..

إنه أقرب من ذلك كله.

إنه هناك

* * *

في الظلمة، عند حلكتها.

في العاصفة، عند ذروتها.

في الأزمة، عند شدتها.

ستجده هناك.

دوماً هناك.

* * *

في ضباب النفس، عند انكسار الروح، رغم كآبة القلب ..

يأتيك هناك، دوماً هناك.

* * *

إنه هناك قرب الأطفال.

عندما يمرحون. وعندما يمرضون. وعندما يقسرهم أهلوهم على النوم..

يكون هناك.

* * *

في دفء المهود. في عبق الورود. في الدمع الساخن النازل على الخدود. في أقصى الحدود.

.. في الصمت، في فحوى الكلام ..

ها هو، يخفف الآلام: في عنبر السرطان. في ملجأ الأيتام، وأيضاً في ساحة الإعدام..

يكون دوماً هناك.

* * *

في الحزن النبيل ..

حزن صغير يتيم. عندما يمر بقصيدة عن الأمهات والآباء. وجهه رابط الجأش-

لكن قلبه يجهش بالبكاء.

فيأتي إليه، ويكفكف دمعه من هو دوماً هناك.

* * *

في حزن صغير معوق، يمر الحسد في عينيه عندما يمر أمامه الأقران..

ويسأل بلوعة (لماذا؟)، فيضمه بحنان، ذاك الذي دوماً هناك.

* * *

.. وعند باعة البسطات، في انتظار للرزق طويل، يفاصلون، يساومون، يجادلون..

ولعلهم كذباً يحلفون. من أجل استفتاح لربما يتيم-ويتساءلون: هل سيكفي لحليب الصغير،

ودواء الأخير، وقلم ودفتر للكبير..

- وكما لو بمعجزة، يكون دوماً هناك.

* * *

.. عند عمال بلا ملامح، يخرجون للرزقِ قبل الفجرِ، ينتظرون ذاك الذي يأتي ولا يأتي..

يتشاكسون ويتناكفون، و بالهم مشغول بجياع في البيتِ، جوعهم مرتهن بذاك الذي يأتي ولا يأتي، وعندما يأتي سيختار من يشاء ويترك من يشاء في عمل يومي شاق-لكنه يشبع الجياع.

* * *

ويكون موجوداً هناك..

ذاك الذي دوماً هناك.

* * *

في الضوء للعميان. الدليل للحيران. واللقمة للجوعان.

ويكون هناك.

في النجاة من الغرق.

في الأجر بعد العرق.

في الطمأنينة بعد القلق.

في النوم بعد الأرق.

يكون دوماً هناك.

* * *

في قلب الأم المفجوع: أمامها ابنها، جسد حبيب، لكن بلا روح..

من يصبره، ويهدهده، ويسكنه، غير ذاك الذي دوماً هناك.

* * *

في شهيق المحتضرين، في صمتهم الأخير، في الوصايا التي لم ينطقوا.

في دمع الفراق الحزين. في النشيج مفجوع الأنين.

في دمعة متكبرة، لم تنزل- رغم الحنين.

يكون دوماً هناك.

* * *

.. فلا تقل لي إنك لا تعرف أين هو..

* * *

..مع صباغي الأحذية الصغار: تمطر السماء، فتمطر القلوب: لن يمتد اليوم حذاء، وسيبيت الجميع جياع..

لكنه يفاجئهم، رغم المطر، ويكون هناك.

* * *

ليس في المساجد ذات الرخام الثمين، ولكن في قلوب المصلين ..في رجفة الخاشعين، في الرعشة تمر في قلوبهم منتشين..

في دعاء المضطرين، ونداء المحتاجين وتلبية الملبين..، يكون دوماً هناك.

* * *

في لوعة المغتربين، في شوقهم الغامض: تارة هائج وتارة دفين..

في إخلاص المحبين، وفي صدق الصادقين، وتصديق المصدقين..

يكون دوماً هناك.

في زنزانة مظلومٍ، في أنينٍ مكتومٍ..

في القلبِ، مكبوتٍ ومكلومٍ، يريد أن يتكلم ولا يجد أحداً، غير هذا

الذي دوماً هناك.

* * *

فكيف تقول... أين هو؟؟

* * *

في قوافل اللاجئين، تركوا بيوتاً وذكريات وحنين، عندهم أمل: غداً نعود.

الطعام على المائدة. والملابس على الحبل. غداً نعود.

إنهم لا يدركون..

لكنه يكون دوماً هناك..

* * *

في ألم المبدعين، في معاناتهم، وفي عطائهم الغامض العظيم..

.. في الدهشة تغزو الأحداق. في العيون المفتوحة بأتساع..

في ألوان قوس قزح تسكن عيون الأطفال، وتظل تطمح للمزيد.

في الغيمة ، عند المطر

في الرجوع، بعد السفر

في الأمان، عند الخطر

في المتعة، قبل الضجر..

في اللوعة، عند السهر..

.. دوماً هناك.

* * *

فكيف تقول إنك لم تصادفه، ذاك الذي دوماً هناك؟

* * *

وفي جوعٍ عفيفٍ..

يموت بصمت، ولكن لا يمد يديه.

وفي فرحٍ نبيلٍ.. إذ لا عشاء في البيت، والأطفال يهددهم الجوع، ويدق الباب فجأة

من هو دوماً هناك.

* * *

يعطي الراحة للمتعبين. والنسيان للمفجوعين. والدواء للموجوعين..

يهدي الحيارى الضالين.. وينير السراج للقلب الحزين.

ذاك هو الذي دوماً هناك.

لا شيء مثله. إذ هو دوماً هناك.

.. ويظل يفاجئنا كل مرة، فإذا به هناك، هناك، وهناك.

- في كل مرة نتوقع ألا نجده، لا يمل من إدهاشنا، ويكون هناك.

* * *

في المشرحة، بين جثث الغرباء: لم يسأل عنها أحد، لم يصل عليها أحد، لم يدفنها أحد- ولن يزورها- إن دفنت- أحد..

لكنه يكون هناك. دوماً هناك.

* * *

على بابه يقفون، بالطوابير، عمالاً ومساكين، يريدون الستر، وأحياناً أكثر بقليل، لم يخذلهم مرة- وكان دوماً هناك.

* * *

في حفرةٍ، دفنوا فيها جندياً مجهولاً: لا نصب لا مراسيم لا احتفالات..

فقط حفرة. ضاعت ملامحه. ضاع اسمه. وضاعت هويته، بقي قلب أمه، يغدو ويروح بحثاً عن قبر لجندي مجهول..

لكنه دوماً هناك.

في اليم، في غيابةِ الجب. في الطوفان.

في الطاعون. في الإعصار. في المخاض الأليم.

في وفاء الأصدقاء. في وقفات لا تنسى- من أشخاص مجهولين..

في الأمل- لليائسين، في موت رحيم- للمتألمين..

في فرحة البريء يحكم البراءة. والسجين بإطلاق سراحه.

في الفدائي وموته النبيل، في أمه وصبرها الجميل..

في ضوءٍ منيرٍ، في حبٍ كبيرٍ، في سرٍ خطيرٍ، في الرمق الأخير.

يكون دوماً هناك.

* * *

في ألم النسوة العواقر، كلما مرت أمامهن حبلى، حبلت قلوبهن بالخواطر، شوقاً للملمس والرائحة والضحكة-وحتى للمخاض رغم المخاطر..

ويقف لهن هناك...

* * *

وفي ذكريات الطفولة. إذ نستذكر الإخوان والأصدقاء والخلان. ترتجف قلوبنا إذ نتساءل:لم يا ترى تغير ودار الزمان، وبدل الأصدقاء والخلان؟؟

نغص. ولكنه دوماً هناك.

عند الأمهات الثكالى، لم يزلن غير مصدقات- رغم حقيقة الكفن، عبر السنين، لا يغمض لهن جفن، وكلما طرق في الليل طارق يهمسن- أحياناً سراً وأحياناً في العلن.. لعله هو

ويكون هناك ليصبرهن، ذاك الذي دوماً هناك.

* * *

عند زوجة جندي مفقود، منذ عشرين عاماً (أو يزيد)، وعندها أمل يظل يقيد، عندها شوق في كل يوم هو جديد. وكلما جاء الأسرى، ذهبت تحمل عشرين عاماً من عمرها ..تسأل، لعل السؤال يفيد، وتظل تطلب المزيد.. من أجل أمل هو في كل يوم جديد..

إنها تتجاهل: أن فوجه- كله- قد أبيد. وأنه- يا حسرة عليه- لم يجد في هذه الأرض كلها قبراً يؤويه..

.. له، ولها، يكون دوماً هناك.

* * *

ليس كمثله شيء، هذا الذي دوماً هناك.

فهو ينتظرنا ويلاحقنا، وأينما ذهبنا يكون هناك.

يتحايل علينا لكي نقابله، ولكننا نأبى..

يدق الأبواب. فنتظاهر بالصمم، وعلى رؤوسنا نشد الغطاء.

ويظل يروح ويجيء أمام بيوتنا. فنسدل الستائر، ونغلق الأبواب..

.. ويطلبنا. ويلح بطلبنا. ويظل يلح بطلبنا..

لكننا أمرُنا أمرٌ. هو صاحبُ أمرِنا، ونحن ليسَ يهمنا الأمرُ!

نصد. نتغابى. نتمنع. نتجاهل، ولا نفكر حتى بالأمرِ..

.. وهو دوماً هناك. ونحن: لا هنا ولا هناك!.

* * *

.. ويظل ينتظرنا- هناك-

ويرسل بالرسائل. ويوسط الوسائط. بل ويأتي بنفسه ليقنعنا..

ويظل يجادل في السبب. ونحن معه، أمرُنا عجبٌ..

* * *

ينتظرنا هناك- ذاك الذي دوماً هناك..

خمس مرات كل يوم- كل يوم، كل يوم!، يأتي إلى بابنا وينتظرنا أن نخرج إليه.. هناك..

وخمس مرات، كل يوم- بينما هو واقف على بابنا ينتظرنا- نخلف الموعد، نتجاهله،

نصد عنه، بل وربما ننتهره.

خمس مرات، كل يوم يغدو ويروح ويدق الباب: ونحن لا نجيب..

خمس مرات في اليوم- ربما العمر كله!.

صحيح أن أمرنا- معه- أمرٌ!.

* * *

فلهذا لا تتعجب، إن لم تصادفه يوماً.

لقد جاء وانتظرك، ولكنك لم تكن هناك.

خمس مرات، كل يوم، ظل ينتظرك. هل هناك أي عاشق متيم كان سيفعل مثله؟

هل هناك أي أم حنون كانت ستنتظر ابناً عاقاً مثلك؟

لا.لا العشق، ولا الأمومة كانا سيصمدان أمام صدود وعقوق كهذا..

على العكس منه: هو، الصمد، ظل دوماً هناك.

* * *

أقول لك: وفي هذا العالم المسكون بالخيبة والوجع، ماذا سواه- هو الذي دوماً هناك..

في هذا العالم المسكون بالآلام والفزع- ماذا سواه، نؤمن به ونتشبث به، ذاك الذي دوماً هناك..

في هذا العالم الملآن بالوحدة والخوف، أي خاطر مرعب- ألا يكون- هو دوماً هناك..

لكن لا. لا داعي للقلق من هذه الناحية: إنه دوماً هناك. المقلق ألا نكون نحن هناك.

* * *

.. وإذا كنت لم تجده هناك، فلن تجده في أي مكان. أقول لك أبحث عن نفسك أولاً، عندما تجدها، فستجده هناك.

* * *

أقول لك: لو أنصت الآن قليلاً. لو أرهفت السمع. لسمعته يدق الباب عليك، اهرع إليه- وافتح الباب له- ستجده هناك.

..ولقد كان دوماً هناك. أنت لم تنصت. ولم تفتح الباب.

* * *

.. وعندما سينزلونك- وحدك- إلى تلك الحفرة ويهيلون عليك التراب، وبالظلمة والطين يلفونك- ثم يبكونك قليلاً ويذهبون- ستعتقد أنك وحدك ولكن ستلتفت، فإذا به هناك.

وسيظل دوماً هناك.

.. وعندما تقوم القيامة، لا مفاجأة طبعاً، سيكون هناك.

* * *

دوماً هناك. تلك هي الحقيقة الوحيدة- الأولى والأخيرة- كل الباقي مجرد تفاصيل.

تلك هي الحقيقة الوحيدة التي تسكن كل الأشياء في هذا الكون.

ولكننا- يا حسرة علينا - نتلهى بالتفاصيل- ونتغيب عنه عندما يريدنا هناك.

* * *

إنه هنا. وهناك. وفي كل مكان. فأين أنت منه الآن. أنت يا من لا أنت هنا، ولا أنت هناك؟

* * *

.. وأقول لك: فلماذا إذن لا تكون هناك؟

كن هناك!.

بغداد ٤/ ٢/ ٢٠٠٢





Light in the Galaxy

A STRANGER IN THE GALAXY
Gharīb fī al-Majarrah

Aḥmad Khayrī al-ʻUmarī

سلسلة من الرسائل المولودة من رحم الدعوة ، المتفلتة من الأبراج العاجية للوعظ التقليدي ، المعجونة بتوتر الواقع والناس الحقيقيين.

إنها رسائل مكتوبة من أجل إنسان واحد فقط، لكنه إنسان حقيقي: قد يكون أي واحد منا ، بكل خفاياه وخباياه وخطاياه ورغباته وخيره وشره.

إنه الإنسان ، بمطلق حاله، و حياته ، لو كانت بعيدة عن الله ، فإنها ستكون كما لو كانت في مجرة معزولة ومظلمة و نائية..

ولأنه لا شيء غير الإيمان يمكن له أن ينير تلك الظلمة - فإن تلك الرسائل تدعوه إلى أن يحفر في أعماقه، تدعوه إلى أن يستحضر في أعماقه: ضوء المجرة..

ISBN 1-59239-699-2

